الإسلام

نهر يبحث عن مجرى

الدكتور شوقي أبو خليل

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام

نهر يبحث عن مجرى

الإسلام نهر يبحث عن مجرى / شوقي أبو خليل . ــ دمشق : دار الفكر، ١٩٩٦ . ــ ١٤٤ ص، ١٧ سم.
ردمك : 8 ـ 267 ـ 57547 ـ 1 .
١ ــ ٢١٠,٩ خ ل ي إ ٢ ــ ٢١٦,٧ خ ل ي إ
٣ ــ العنوان ٤ ــ أبو خليل
مكتبة الأسد
ع ــ ٨٤٦ / ٧ / ١٩٩٦

الرقم الاصطلاحي: ١٠٦٧,٠١٣
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-267-8
الرقم الموضوعي: ٢١٠
الموضوع: دراسات إسلامية
العنوان: الإسلام نهر يبحث عن مجرى
التأليف: د. شوقي أبو خليل
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ١٤٤ ص
قياس الصفحة: ١٢×١٧ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
سورية - دمشق - ص.ب (٩٦٢)
برقياً. فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.Fikr.com/
E-Mail: Fikr @asca.com

الطبعة الأولى
1417هـ - 1996م

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

مقدّمَة

الحمد لله الَّذي جَعَلَ الإلهامَ لحمدِهِ نعمةً من عندِهِ .

والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدنا مُحَمَّدٍ رسولِهِ الكريم وعبدِهِ .

والرِّضا عن آلِهِ وصحبِهِ مِنْ بعدِهِ .

وبعد ..

منذ سنوات وأنا أُفكِّر في حال الإسلام مع مطلع القرن الحادي والعشرين ، ونحن على أبوابه ، خصوصاً والهجمة عليه عنيفة ، والتَّشويه له بالغ ، وإمكانات الآخر كبيرة بلا حدود أو قيود .

ورحت أستعرض في ذاكرتي مراحل قيام الإسلام وبزوغ فجره ، منذ اللَّحظة الأُولى لنزول الوحي على قلب المصطفى المختار ﷺ حتَّى مطلع القرن العشرين ، فرأيته نهراً منبعُهُ (حِراء) ، ومعينُه (اقرأ) ، ومنهلُه رحمة للإنسانيَّة ، وقطراتُه ومياهُه لأُولي الألباب الَّذين يتفكَّرون ويعقلون ، ومجراهُ شعبٌ اختاره اللهُ لحمل الإسلام للنَّاسِ كافَّةً ، وليكون لهم شرفاً وتكريماً : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ ، [الزُّخرف : ٤٣/٤٤] .

نهرٌ تدفَّق ـ ويتدفَّق ـ من كتاب مجيد ، وسُنَّة شريفة ، ومجراهُ شعبٌ آمن بالله ربّاً ، وبِمُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ رسولاً نبيّاً ، نبعُ منطلقه (حِراء) ، انسابت فروعه وسواقيه إلى الصِّين وإفريقية وأُوربَّة أيَّام الفتوح في العصر الأُموي ، فأينعت غراسُ ضفَّتَيْهِ الخصيبتَيْن الْخَيِّرتَيْن ثمار نهضة علميَّة ، وحضارة إنسانيَّة في العصر العبّاسي ، ثمَّ سار مجراه تجاه نور الدِّين محمود ، وصلاح الدِّين ، ثمَّ تحوَّل مجراه إلى المغول في أواسط آسية والهند ، وكان قد تفرَّع منه فرع نقي طيِّب فرات إلى المرابطين

وأميرهم يوسف بن تاشفين ، حيث روى بمبادئه حوض النِّيجر ، وسواحل إفريقية الغربيَّة ، ثمَّ سقى مجراه المماليك ، ثمَّ العثمانيِّين - قبل الاتِّحاد والتَّرقِّي - حتَّى مطلع القرن العشرين .

هل نَضَب المعين فجفَّت مياه المجرى ؟

أم هل تحوَّل المجرى من قناة إلى قناة أُخرى ؟ فمن الطَّبيعي لقوانين المياه ، وما عُرِف بالأواني المستطرقة ، أن تتحوَّل إلى مجرى آخر ، إن وُضِعَت السُّدود في طريقه ، فتراه بهدوء يبحث عن مجرى جديد ، ينساب فيه .

علَّمني التَّاريخ أنَّ المعين غزير متدفِّق ، فالإسلام نهر خالد لن يجفَّ مجراه . فلئن زهد به مشركو مكَّة قبل الهجرة ، لقد مهَّد الأوس والخزرج مجراه إلى المدينة المنوَّرة ، وجاء صلح الحديبية فتحاً سياسياً لمكَّة المكرَّمة ، وأدركت قريش أنَّها وقَّعت على وثيقة استسلامها بنصوص صلح أملت بنوده بعناد ، وانضوت في مجراه بعد فتح مكَّة ، لترفده بإخلاص في حروب الرِّدَّة ، ثمَّ تدفَّقت سواقيه شرقاً وغرباً وشمالاً ، وأينعت تلك

الفسائل الطَّيِّبة النَّضرة وأثمرت حضارة إنسانيَّة ، فيها الرُّوح لا تنكر المادَّة ، والمادَّة لا تطغى على الرُّوح .

ونظرت إلى واقع مدنيَّة الغرب اليوم ، فرأيتها مجرى جفَّ ماؤه ، يبحث عن مياه نهرٍ صافٍ يرفده ، ورأيت في الوقت ذاته الإسلام نهراً يبحث عن مجرى .

هل من بشائر لبلوغ المجرى مدنيَّة الغرب المادِّيَّة ، الَّتي جفَّت فيها ينابيع الرُّوح ؟

البشائر كثيرة ، منها الأُمور الموثَّقة التَّالية :

ـ كنت أقرأ خطاب الأمير تشارلز ولي عهد بريطانية ، أمير ويلز ، والَّذي كان بعنوان : (الإسلام والغرب) ، ألقاه في مسرح شيلدونيان بمناسبة زيارته إلى مركز أُكسفورد للدِّراسات الإسلاميَّة ، يوم الأربعاء السَّابع والعشرين من تشرين الأوَّل (أُكتوبر) عام ١٩٩٣ م ، وممَّا جاء في خطابه بعد اعترافه الرَّائع بأنَّ الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ـ الَّتي نضجت في الأندلس

في ظلّ الحكم الإسلامي ـ هي اللّبنات الأُولى للنّهضة الأوربيّة ، وقال ، كما جاء في التّرجمة الرّسميّة للخطاب :

« إنّ الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتّفاهم والعيش في العالم ، الأمر الّذي فقدته الديانة المسيحيّة ، ممّا أدّى إلى ضعفها ، ويكمن في جوهر الإسلام حفاظه على نظرة متكاملة للكون ، فالإسلام ـ وعلى غرار الديانتَيْن البوذيّة والهندوسيّة ـ يرفض الفصل بين الإنسان والطّبيعة ، والدّين والعلم ، والعقل والمادّة .

لقد أصبحت الحضارة الغربيّة مولعة بالكسب واستغلاله على نحو متزايد بما يتنافى مع مسؤولياتنا البيئيّة ، إنّ هذا الشّعور الهام بالوحدانيّة والوصاية على الطّابع القدسيّ والرّوحيّ للعالَم من حولنا شيء مهم يمكن أن نتعلّمه من جديد من الإسلام ، إنّني على ثقة بأنّ البعض سيسارع لاتّهامي ـ كما يُفعل عادة ـ بأنّني أعيش في الماضي ، وأنّني أرفض التّأقلم مع الواقع والحياة العصريّة .

أيُّها السَّيِّدات والسَّادة ..

إنَّ الأمر على عكس ذلك ، فما أدعو إليه هو فهم أوسع وأعمق وأشمل لعالمنا ، وفهم يشمل البعد الرُّوحي ، بالإضافة إلى البعد المادِّي لحياتنا ، بغية استعادة التَّوازن الَّذي تخلينا عنه ، والَّذي أعتقد أنَّ غيابه سيثبت أنَّه مدمِّر في الأمد الطَّويل ، وإذا كانت أساليب التَّفكير الموجودة في الإسلام والديانات الأُخرى ، يمكن أن تساعدنا في هذا السَّبيل ، فإنَّ هناك أشياء يمكن أن نتعلَّمها من نظام العقيدة هذا ، والَّتي أرى أنَّنا نتجاهلها بشكل يُلْحِق بنا الخطر » .

ـ وأذاعت لندن (هيئة الإذاعة البريطانيَّة) صباح الأحد ١٩٩٥/١/٢٩ م أنَّه على الرَّغم من العداء المعلن ، والحديث عن الأُصوليَّة ، وعن الإرهاب الإسلامي .. عشرة آلاف بريطاني يعتنقون الإسلام ، قسم كبير منهم من النِّساء ، وذلك خلال عام ١٩٩٤ فقط .

ـ وفي عام ١٩٨٥ م (١١ ـ ١٣ المحرم ١٤٠٦ هـ) عُقِد مؤتمر دولي ، خُصِّص للإعجاز العلمي ـ الطِّبِّي خاصَّة ـ في القرآن

الكريم ، وأثناء المؤتمر ، اعتنق عبد الله أليسون الإسلام ، وهو بريطاني ، يعمل حالياً رئيس قسم الهندسة الإلكترونيَّة بجامعة لندن ، وممَّا قاله أليسون حين إعلان إسلامه :

« إنَّ العالَم المادِّيَّ اليوم في مأزِق خطير ، وما يقولونه أو يرونه لا يفسِّر الحقيقة تماماً ، إنَّهم يبحثون عن العودة إلى الدِّين والبيان الصَّحيح الشَّامل ، وهنا يقع العبء على المسلمين ، وهذا هو واجبهم ، وواجب مفكِّريهم في التَّقدُّم إلى البشريَّة الحائرة التَّائهة بالحلول الإسلاميَّة السَّليمة » .

ـ والدكتورة آن كوكسون ، آمنة كوكسون اليوم ، طبيبة بريطانية استشاريَّة متخصِّصة في الأمراض العصبيَّة ، وخلال عملها في الثَّمانينات التقت بالكثيرين من المسلمين ، وتعرَّفت إلى طبائعهم وعاداتهم ، وتذكر على وجه خاص أُسلوب استجابة الإنسان المسلم عند وقوع المأساة ، وتروي بهذا الشَّأن قصَّة امرأة شابَّة جاءت من إحدى البلاد العربيَّة لترافق والدتها المريضة[(١)] .

---

(١) (سَيِّدتي) العدد ٧١٧ ، ٣ ـ ١٩٩٤/١٢/٩ ، ص ٦ ـ ١٠ ، وعيادتها في (هارلي ستريت) المعروف بشارع الطِّب .

كان من المفترض أنَّ هذه المرأة الشَّابَّة معـافـاة وصحيحـة ، ولا شأن لها بالمرض الَّذي هو بـالأحرى مشكلـة والـدتهـا ، لكن الدكتورة آن كوكسون كان عليهـا حسب الإجراءات أن تفحص الابنة فحصاً عامّاً تقليدياً ، فكانت المفـاجـأة غير المتوقَّعـة ، بل المفجعة ، إن هذه الابنة الشَّابَّة السَّليمة المعافاة ، اتَّضح أنَّ لـديهـا بوادر إصابة بمرض سرطان الثَّدي .

« الحمـدُ لله » قـالت الابنـة على الرَّغم من الخبر الَّـذي نقلتـه إليها الدكتورة آن كوكسون على مضض ، « الحمدُ لله أنَّـه بعثـكِ إليَّ لتكشفي مرضي وهو في أوَّلياته » ، كان هذا كلُّ مـا ردَّت بـه الابنة .

تقول الدكتور (آن) :

« هذه القناعة ، وهذا الرِّضا بما يقسمه الله للعبـاد أسَرَاني في هـذه المرأة ، لم تولولِ ولم تصرخ ، ولم تبـكِ أو تفزع مثلمـا نفعل نحن هنا ، لقد شعرت بالرَّاحة من هذا المسلك ، فـاستزدت بقوة روحانيَّة وإحساس بالثَّبات » .

وبعد دراسة الإسلام الّذي أعطى الطّمأنينة والرّاحة النّفسيّة لهذه الفتاة ، وحينما اقترب رمضان عام ١٩٩٠ م خطرت لها فكرة : « قلت لنفسي سيكون من الجميل لو اعتنقت الإسلام بمناسبة حلول رمضان » ، فصامت وأعلنت إسلامها في مسجد لندن .

وحينما تتذكّر الدكتورة آمنة ـ وهو اسمها بعد إعلان إسلامها ـ تلك اللّحظات تلمع عيناها بالحنان ، تقول :

« سبق لي كثيراً أن قرأت القرآن الكريم مترجماً وفهمت الكثير منه ، لكن الاستماع إلى تلاوة القرآن باللّغة العربيّة شيء آخر ، فباللّغة الأصليّة نستمتع بالطّعم الحقيقي للكلمة ، إنّ لفظة الرّحمن الرّحيم ـ تقولها بالعربيّة ـ لها طعم مختلف على اللّسان من ترجمتها إلى The Merciful and Compassionate ، وحين استمعت إلى تلاوة القرآن لأوّل مرّة من صوت قارئ مصري ضرير ، بكيت ..

أعتقد أنّ الإنسان الّذي يعتنق الإسلام سيجد أنّه دين يجمع الأديان السّابقة ويزيد عليها ، وهذه هي عظمة

الإسلام ، فالمرء لا يشعر أنّ عليه أن يتنكر أو يحتقر دينه السّابق ، لأنّ الإسلام يحترم كلّ الأنبياء السّابقين لمحمد خاتم المرسلين ﷺ ، فالنّبيّ عيسى عليه السّلام مُقدّر ومحترَم في الدّين الإسلامي ، وكذلك أُمّه مريم عليها السّلام ، وهذا شيء جميل يدلّ على رحابة الإسلام وشموليّته وعلى أنّه خاتم الأديان » .

وتقول الدكتورة آمنة كوكسون : « الإسلام أصبح جزءاً منّي .. كنت أشعر بفراغ روحي وأبحث عن شيء فوجدته في الإسلام .. ولحظات الصّلاة بالحجاب هي لحظات النّقاء الرُّوحي الكامل » .

ـ أمّا الدكتور مرادويلفرد هوفمان ، سفير ألمانية في المغرب ، فقد ذكر في كتابه الموسوم بـ (يوميّات ألماني مسلم)(١) الفراغَ الرُّوحي في الغرب ، وكبار علماء المجتمع ، وحتّى كبار رجال اللاّهوت ، بدؤوا يرفضون عقيدة الغرب ونهجه ، وراحوا يتّجهون إلى الإسلام ، مثل : عالم اللاّهوت السّويسري

(١) ترجمة د . عبّاس رشدي العماري ، طباعة : مركز الأهرام للتّرجمة والنّشر .

الـدكتور هـانزكونج ، الَّـذي يُسَلِّم بـأنَّ محمَّـداً ﷺ نبيٌّ حقيقيٌّ بمعنى الكلمـة ، ولا يمكننـا بعـدُ إنكار أنَّ محمـداً ﷺ هـو المرشـد القائد على طريق النَّجاة .

ثمَّ تكلَّم الدكتور هوفمان عن : منـاعـة الإسلام ، وانتشـاره بشكل عفـوي ، وهـذا الانتشـار العفـوي سِمَـة من سماتـه على مرِّ التَّـاريخ ، على العكس من انتشـار الشَّرائع الأُخرى الَّتي طُبِقَت بالعنف والوحشيَّة ، وانتشـار الإسلام بشكل عفوي أو طبيعي ، لأنَّه دين الفطرة المنزَّل على قلب المصطفى ﷺ ، ويقول :

وخير سلاح لدعاته الأُسوة الحسنة برسول الله ﷺ .

وهذا أمر بدهي ، فمن أين جئت ساح سيرتـه الشَّريفـة ، نهلت قمم المجد والكمال البشري .

ـ الدكتور (روبرت كرين) فاروق عبد الحق ، مستشـار الرَّئيس الأمريكي نيكسون للشُّؤون الخـارجيَّـة ، ونـائب مـدير مجلس الأمن القـومي في البيت الأبيض عــام ١٩٦٩ م ، وسفير الولايات المتَّحدة في الإمارات العربيَّة المتَّحـدة في عهـد رونـالـد

ريغان ١٩٨١ م ، أسلم عام ١٩٨٠ م على يد الدكتور حسن التُّرابي[١] .

من تصريحاته :

الإسلام هو الحلُّ الوحيد ، فهو الَّذي يحمل العدالة في مقاصد الشَّريعة ، وفي الكلِّيَّات والجزئيَّات والضَّروريَّات .

المفتاح للإسلام هو استعمال العقل ، والمتابعة للوصول إلى الحقيقة ، والحقيقة تحتوي على الهدف والقصد .

---

(١) الدكتور روبرت كرين (فاروق عبد الحق) هو المؤسِّس والمنشئ لمركز الحضارة والتَّجديد في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ، وبعد حصوله على الدكتوراة في الأنظمة القانونيَّة المقارنة من جامعة هارفارد ، وبعد تأسيسه لصحيفة هارفارد للقانون الدّولي وتسلُّمه منصب الرَّئيس الأوَّل لجمعيَّة هارفارد للقانون الدولي ، عمل لمدَّة عقد من الزَّمن فيما يسمَّى بـ (المراكز الاستشاريَّة لصنَّاع السِّياسة في واشنطن) ، وشارك في تأسيس مركز الدِّراسات الاستراتيجيَّة الدّوليَّة ، [العالم (العدد ٥٢٦) تشرين الثَّاني (نوفمبر) ١٩٩٥ ، جمادى الثَّانية ١٤١٦ هـ ، ص ٣٦-٣٨ ، مقابلة صحفيَّة جرت بدمشق مع الدكتور روبرت كراين] .

هـذا غيض من فيض ، وقـلٌ من كُثْر ممَّـا يجري في الغرب اليوم ، وآلام المخاض لا بُدَّ منها ، فالمولود ذو قيمة ثمينة جدّاً ، إنَّ النَّجاةَ بين يديه ..

والأمثلـة أكثر من أن تُحصى ، رجـا غـارودي ، يـوسف إسلام (كات استيفنس) مطرب القارَّتَيْن ، عبـد الرَّشيـد سكنر (صاحب تكنولوجيـا السُّلوك الإنسـاني) ، أُولفـا بـالمي رئيس وزراء السُّوَيد الأسبق ، الَّذي جعل عام ١٩٨٥ م عام الإسلام في السُّـويـد ، ولقـد أراد منـه : زيـادة التَّعريف بـالإسـلام دينـاً وحضارة وأُسلوب حيـاة ، بعـد أن ظهر أنَّ الملايين الَّتي تعتنقـه تفرض وجودها في العالم ، وإيجاد التقاء مع الجالية الإسلاميَّة في السُّـويـد والاستفـادة منهـا ، وإيجـاد اتِّصـال ثقـافي مـع العـالم الإسـلامي والعربي ، وعلى تـدعيم نقـاط الالتقـاء القـديمـة الَّتي تركت بصمات على حيـاتنـا حتَّى اليوم ، « وعنـدمـا نـأخـذ من الإسلام الجـانب الرُّوحي الغني ، فسـوف نستطيـع التَّعقُّب معـاً المستقبل الواحد الخيِّر » .

واستعداد النّاس في الغرب سماع كلّ جديد ، يفتح الأبواب ويزيل السّدود النّفسيّة ، ومن يعتنق الإسلام من الأوربيّين ، يتحوّل تلقائيّاً إلى داعية لما اقتنع به ، فكما أنّ الإنسان مطبوع على حبّ الْجَمال مفطور عليه ، إن رأى وردة نضرة أحبّها ، وإن شمّ رائحة زكيّة شذيّة عشقها ، فإنّه مطبوع على حبّ الحقيقة مفطور عليها .

كان الإنسان في الغرب يقبل التّلقين بلا عقل ، وبلا تمحيص ، اتّباعاً للقولَيْن المعروفَيْن عندهم : أطِع وأنت أعمى ، واعتقد هذا وإلاّ هلكت ، ولكن ما عاد العصر ، والتّقدُّم العلمي يقبل إبعاد العقل والمحاكمة والعِلم ومكتشفاته عن المعتقد .

☆ ☆ ☆

وبعد ..

هذا الكتاب بابان :

الباب الأوّل :

عرض لكرّاس طبع بخمس لغات ، عنوانه : (من ذاكرة

التّاريخ العربي الإسلامي) ، وزّعته اللّجنة الدّوليّة للصّليب الأحمر .

أردت من عرضه شيئَيْن :

أوّلهما : تصويب ما ورد فيه من النّاحية التّاريخيّة .

ثانيهما : إنّ القانون الدّولي الإنساني المعمول به اليوم حسب اتّفاقيّات جنيف ، مع الملحقَيْن المضافَيْن لها ، مقتبسة - جُلُّها - من الإسلام ، مع الفارق الجوهري ، فاتّفاقيّات جنيف توصيات ، قد يُعْمَل بها ، وغالباً تُتْرَك دون خشية أحد ، بينما القانون الدّولي الإنساني في الإسلام عقيدة ومبدأ ، ينفّذ برقيب ذاتي ، لأنّه دين .

والباب الثّاني :

يضمُّ ثلاثة فصول وخاتمة :

الفصل الأوّل : المجرى الّذي جَفَّ .

والفصل الثّاني : النّهر الّذي يبحث عن مجرى .

والفصل الثّالث : ويبقى الإسلام قويّاً .

وخاتمة : القرن الحادي والعشرون قرن الإسلام .

فكما وجد العالَمُ في الإسلام الضّوابط الإنسانيّة لعلاقاته الدّوليّة ، سيجد فيه أيضاً ضالّته لحياته الأُسَرِيَّة والاجتماعيَّة والعقديَّة .

فالخاتمة (نبوءة) ، أو (توقُّع) ، أو (بشارة) .. بداياتها ظاهرة بيِّنة .

﴿ يُرِيدُونَ أن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأفْوَاهِهِم وَيَأْبَى اللهُ إلاّ أن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرونَ ، هُوَ الَّذي أرْسَلَ رَسولَهُ بِالْهُدى ودِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكونَ ﴾ ، [التّوبة : ٩/٣٢ و٣٣] .

صدق الله العظيم

الدكتور شوقي أبو خليل

دمشق الشّام في :

٦ رمضان المبارك ١٤١٦ هـ .

٢٦ كانون الثاني ١٩٩٦ م .

الباب الأول

من ذاكرة
التاريخ العربي الإسلامي

من ذاكرة التّـاريـخ العربي الإسلامي

وزّعت اللّجنـة الـدّوليّـة للصّليب الأحمر (International Geneve Comite) كرّاسـاً مطبوعـاً بخمس لغـات هي اللُّغـات المعتمـدة في منظمـة الأُمم المتّحـدة ، طُبِع بشكل أنيـق ، وألـوانٍ جذّابة ، عنوانه : (من ذاكرة التّاريخ العربي الإسلامي) ، فيه مقارنة لطيفة موثّقة بين القانون الدّولي المعمول به اليوم عالميّاً ، حسب اتّفـاقيّـات جنيف الأربع لعـام ١٩٤٩ م ، والبروتوكولَيْن الملحقَيْن الإضـافيّيْن لاتّفـاقيّـات جنيف ، والصّـادرَيْن عام ١٩٧٧ م ، وبين مبادئ الإسلام وتعاليمه الإنسانيّة .

جـاء في مقـدّمـة هـذا الكُرّاس ، الّـذي حصلت عليـه من الأستاذ الزّميل الدكتور إحسان هنـدي ، الّـذي عرض الكرّاس المذكور في محاضرة لسيادته في المجمع العلمي العالي بدمشق ، يوم

الخميس ١٩٩٥/٤/٦ م ، والَّتي كانت تحت عنوان : (دور الإسلام في نشوء وتطوُّر القانون الدّولي والإنساني)[1] :

[**جاء في المقدّمة**] :

« بإطلالة واعية على التُّراث العربي الإسلامي العريق ، يتبيَّن لنا مدى حِرصِه على تأكيد تقاليد الفروسيَّة[2] ، حيث أضفى عليها صبغَتَه الإنسانيَّة ، وحثَّ على التَّقيُّد بها ، من حيث الاحترام المتبادل والإنصاف في الهجوم والدِّفاع ، كالامتناع عن قتل من سقط عن فرسِهِ ، أو قُتِلَ فرسُه ، بالإضافة إلى احترام حقوق المقاتلين ، والرِّفق بالضَّحايا ومعاملتهم معاملة إنسانيَّة ، وهو في ذلك يتَّفق مع نصوص وروح القانون الدَّولي الإنساني الَّذي يحتِّم حماية حقوق

(1) وكلُّ نصٍّ في المتن بين قوسَيْن معقوفتَيْن [ ] إضافة مني ، وكلُّ حاشية في هامش النَّصِّ بالأرقام : 1 ، 2 ، 3 .. ليست من الكرّاس ، إنَّها تصويب أو تعليق ، أو توثيق منِّي أيضاً .

(2) ثمَّة كتب مفردة حول الفروسيّة في التُّراث الإسلامي ، انظر :
- الفروسيّة لابن القيّم .
- الفروسيّة الشّرعيّة لابن القيّم أيضاً .

المقـاتلين ، وضحـايـا النِّزاعـات المسلَّحـة ، ويقيِّـد من وسـائـل استعمال القـوَّة ، بقصر استعمالهـا ضـدَّ المقـاتلين أثنـاء المعـارك الحربيَّة ، وحظر استعمالها ضد المـدنيِّين أو الجرحى من المقـاتِلين الَّـذين حيَّـدتهم إصـابـاتهم ، فـأصبحوا غير مشـاركين في القتـال فعلاً .

إنَّ النَّظرة المتـأنِّيـة لتبيِّن بجـلاء ووضـوح حرص شريعـة الإسـلام السَّمحـاء ، وحرص قـادة جيـوش المسلمين على احترام إنسانيَّة الخصم ، سواء كان الخصم مقاتلاً أو أسيراً أو مدنيّاً أعزل ، ممَّا يؤكِّد أنَّ هـذه الشَّريعـة كانت إحـدى الموارد الَّتي نهل منهـا القانون الدولي الإنساني قواعده ومبادئه السَّامية » .

[**ثمَّ قال الكرَّاس**] :

« وستجد أيُّها القـارئ الكريم في الصَّفحـات التَّـاليـة بعض النُّصـوص التُّراثيَّـة استقينـاهـا كشـواهـد من التُّراث العربيِّ الإسلاميِّ ، وأثبتنـا مـا يتَّفق معهـا من نصوص القـانون الـدَّولي الإنساني المعاصر .

وفي البداية نجد أنَّه من المناسب التَّعرُّف على ماهيَّة القانون الدَّولي الإنساني ، حيث يمكن تعريفه بأنَّه (مجموعة من القواعد القانونيَّة الَّتي تحدِّد حقوق ضحايا النِّزاعات المسلَّحة ، وتفرض قيوداً على المقاتلين في وسائل استخدام القوَّة العسكريَّة ، وقصرها على المقاتِلين دون غيرهم ، وضحايا النِّزاعات المسلَّحة هم القتلى والجرحى والمرضى والأسرى في المعارك البرِّيَّة والبحريَّة والجوِّيَّة ، فضلاً عن المحميِّين في الأرض المحتلَّة) .

[ومن وثائقه المعتمدة] :

- اتِّفاقيَّات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ م[١] .

- البروتوكولان (الملحقان) الإضافيَّان لاتِّفاقيَّات جنيف والصَّادران عام ١٩٧٧[٢] .

---

(١) وقد صدَّقت على اتِّفاقيَّات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ أغلب دول العالم ، حيث بلغ عددها ١٨١ دولة حتَّى الآن .

(٢) وقد صدَّق على البروتوكول الأوَّل لعام ١٩٧٧ (١٢٦ دولة) حتَّى الآن ، وقد صدَّق على البروتوكول الثَّاني لعام ١٩٧٧ (١١٧ دولة) حتَّى الآن .

ـ مبادئ القانون الدّولي كما استقرّ بها العُرْفَ ومبادئ الإنسانيّة ، والضّمير العام ، بالإضافة إلى القواعد الإنسانيّة المستمدّة من أيّ اتّفاق دولي » .

[ثمّ يذكر الكُرّاس] :

« ومن يراجع التّراث الإسلامي ، يجده قد اتّفق مع المعاهدات المعاصرة الّتي قيّدت استخدام القوّة في النّزاعات المسلّحة ، ولقد اتّسمت الحرب في الإسلام بالرّحمة والفضيلة ، فلنقرأ قول رسول الله ﷺ ، وهو يقول لمن تولّى إمارة الجند :

« انطلقوا باسم الله ، وعلى بركة رسوله ، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأة ، ولا تَغِلُّوا ـ أي لا تخونوا ـ وأصلحوا وأحسنوا ، إنّ الله يحبُّ المحسنين » .

[النّصُّ في السّيرة الحلبيّة ٣/٧٧ : « أُوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله ، فقاتلوا عدوَّ الله وعدوّكم بالشّام ، وستجدون فيها رجالاً في الصّوامع معتزلين فلا تتعرّضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تهدموا بناءً »] .

ويعضد[1] هذا القول أوّل الخلفاء الرّاشدين أبو بكر الصّدّيق حيث يقول :

« ولا تقطعوا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً إلاّ لمأكلة ، وسوف تمرُّون على قوم أفرغوا أنفسهم في الصَّوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

[وصيّة الصّدّيق رضي الله عنه لجيش أُسامة بن زيد كما في الطّبري ٢٢٦/٣ ، الكامل في التّاريخ ٢٢٧/٢] : « يا أيُّها النَّاس ، قفوا أُوصيكم بعشر فاحفظوها عنّي : لا تخونوا ولا تَغلُّوا ، ولا تَغدروا ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكَلَة ، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصَّوامع ، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطّعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا

(1) في الأصل (ويكمّل) ، والأنسب : ويعضد .

اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسَّيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله] .

ثمَّ يضيف ليزيد بن أبي سفيان قائلاً : (ولا تقاتل مجروحاً فإنَّ بعضه ليس منه)[1] .

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ ، بل يأتي الفقه الإسلامي مفرِّعاً على هذه الأحكام فروعاً ، من ذلك ما ذهب إليه الإمامان مالك والأوزاعي من أنَّه : لا يجوز بحال من الأحوال قتل النِّساء والصِّبيان من الأعداء ، ولو تترَّس بهم أهل الحرب ، أي حتَّى ولو وضعوهم أمامهم دريئة للقتل ، وترساً يحميهم منه .

هذا وقد أتى القانون الدَّولي الإنساني بتنظيم دقيق لاستعمال القوَّة العسكريَّة ، حيث قصر استعمالها على الأفراد العسكريِّين ، وعلى الأعيان العسكريَّة ، بصورة تتَّفق مع ما سبق وعرضناه من قبل ، بالنِّسبة لحديث رسول الله ﷺ لأُمراء الجند .

---

(1) في عيون الأخبار ١٠٧/١ : « ولاتقاتل بمجروح فإنَّ بعضه ليس منه » .

وتغليباً للطَّبع الإنساني فقد جاءت تسمية القانون الَّذي يحكم النِّزاعات المسلَّحة (بالقانون الدَّولي الإنساني)[1] ، حيث الحماية الَّتي يكفلها ويسعى لضمانها لبعض الطَّوائف والأشخاص ، وهي الَّتي أكَّد عليها دوماً التُّراث العربيُّ الإسلاميُّ ، وهؤلاء الأشخاص هم :

- الجرحى والمرضى والغرقى [الاتِّفاقيَّتان الأُولى والثَّانية ، والبروتوكول الأوَّل] .

- أسرى الحرب [الاتِّفاقيَّة الثَّالثة ، والبروتوكول الأوَّل] .

- المدنيُّون [الاتِّفاقيَّة الرَّابعة ، والبروتوكول الأوَّل] .

- ضحايا النِّزاعات المسلَّحة الدَّاخليَّة [المادَّة الثَّالثة المشتركة ، والبروتوكول الثَّاني] .

- أفراد الخدمات الطِّبيَّة والصِّحيَّة والمساعدة الإنسانيَّة ، ورجال الدِّين ، وأفراد الجمعيَّات التَّطوعيَّة .

---

(١) استخدام هذا الاصطلاح يرجع إلى اللجنة الدَّوليَّة للصَّليب الأحمر ، وأصبح محلَّ اتِّفاق من الجميع للدَّلالة على حقوق الإنسان أثناء النِّزاع المسلَّح .

كـذلـك حـدَّد القـانون الـدَّولي الإنسـاني بـدقَّـة الممتلكات والأماكن المحميَّـة ، وأورد تنظيمـاً دقيقـاً لتوفير سبل حمـايتهـا ، ومنع الاعتداء عليها ، وهي :

- شارة الحماية (الهلال الأحمر أو الصَّليب الأحمر) .
- الوحدات والمنشآت الصِّحيَّة بكافَّة أصنافها ووسائلها .
- الممتلكات ذات الطَّابع المدني عموماً .
- الممتلكات الثَّقافيَّة ، وأماكن العبادة .
- المناطق الآمنة .
- المناطق المُحَيَّدة .
- المناطق غير المحميَّة .
- المناطق المنزوعة السِّلاح .

وسائل عمل الحماية المدنيَّة ومنشآتها .

- المنشآت الَّتي تحتوي على قوى خطرة ، كالسُّدود ومحطَّات توليد الطَّاقة الكهربائيَّة .
- البيئة الطَّبيعيَّة .

وإذا كان القـانـون الـدَّولي الإنسـاني قـد أتى بمنظـومـة من

القواعد والمبادئ الَّتي تهدف إلى حماية ضحايا النِّزاعات المسلَّحة ، بحيث تكفل لهم الرِّعـايـة والعنـايـة الكافيـة ، علاوة على تـوفير الاحترام والحماية لهم في حالة وفـاتهم أو فقـدهم فضلاً عن حمـايـة السُّكَّان المدنيِّين والأعيان المدنيَّة ، والَّتي حرص على تأكيدهـا في أغلب نصوصه ، فإن ذلك مرجعه أن ما تضمَّنه من قواعـد ليست سوى ترسيخ لقيم ومبادئ متأصِّلة في التُّراث الإنسـاني العـالمي ، وإذا صيغت في العصور الحديثة في نصوص اتِّفاقيَّات دوليَّة فلأن المجتمع الدَّولي في حاجة ماسَّة إليها الآن ، وخاصَّة أنَّ الممارسات الدَّاميـة الَّتي تصـاحب أغلب المواجهـات المسلَّحـة تتَّسم بـالقسوة والوحشيَّـة ، وهـذه القواعـد مستقرَّة في الفقـه الإسـلامي الَّـذي أرسى قواعد المعاملة الإنسانيَّـة للعـدو الَّـذي لا يستطيع قتـالاً ، وميَّـز بين المقـاتِلين وغير المقـاتِلين ، وضمن حصـانــة المبعـوثين والرُّسـل وحظر الخيـانـة في الحرب ، وفيما يلي أمثلـة عن كيفيَّـة معاملة المسلمين للجرحى والمرضى والأسرى :

ـ بـالنِّسبـة لحقـوق الجرحى والمرضى فقـد أوجب الإسـلام ـ ـامـلــة الجرحى والمرضى ، وحرَّم مقـــاتلتهم أو قتلهم

أو المُثْلَة بهم ، ولقد جاءت تصرُّفات صلاح الدِّين الأيوبي في الحرب الصَّليبيَّة خير دليل على ذلك ، حيث قام بنفسه بعلاج قائد الصَّليبيِّين ريتشارد قلب الأسد .

[« يفهم ممّا ذكرته المراجع أن ريتشارد دأب في مرضه على طلب الفاكهة والثَّلج من صلاح الدِّين ، فكان صلاح الدِّين يستحضرها خصيصاً له ويرسلها إليه ، وكان لذلك السُّلوك من جانب صلاح الدِّين أطيب الأثر في نفس ريتشارد » ، [الحركة الصَّليبيَّة ، د . سعيد عبد الفتاح عاشور ٨٩٦/٢] .

وفي النَّوادر السُّلطانيَّة ص ٣٨٣ لابن شدّاد ، وفي كتاب الرَّوْضتَيْن لأبي شامة : « ورُسُل الإنكلتيري ـ الإنكليزي ـ لا تنقطع في طلب الفاكهة والثَّلج ، وأوقع عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ ، وكان السُّلطان يمدُّه بذلك »] .

ـ أمَّا بالنِّسبة لمعاملة المسلمين لأسرى الحرب ، فقد ورد بالقرآن الكريم : ﴿ وَيُطْعِمونَ الطَّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً ويَتِيماً وأسِيراً ﴾ [الإنسان : ٨/٧٦] ، وقال الرَّسول ﷺ : « استوصوا بالأسرى خيراً » ، وحثَّ المسلمين على حُسْنِ معاملتهم منذ أكثر

من ألف سنة ، حيث كان الأسرى يُقْتَلون ويُعَذَّبون وتقطع أطرافهم ، ثمَّ يُسْتَعْبَد البعض الآخر .

[الأحاديث النَّبويَّة الَّتي تأمر بحسن معاملة الأسرى والإحسان إليهم كثيرة جداً ، نقتطف منها ما جاء في [أُسْد الغابة ٢١٣/٦] في ترجمة أبي عزيز بن عمير ، لما أقبل رسول الله ﷺ بأسارى بدر ، فرَّقهم على المسلمين ، وقال : « استوصوا بالأسارى خيراً » ، قال أبو عزيز : كنت في الأسارى يوم بدر ـ وكان مِمَّن حضر بدراً وأُسِر يومئذ ـ فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « استوصوا بالأسارى خيراً » ، فإن كان ليُقَدَّم إليهم الطَّعام ، فما يقع أحدهم كسرة إلاّ رمى بها إليَّ ، ويأكلون التَّمر يؤثرونني ، فكنت أستحيي فآخذ الكسرة فأرمي بها إليه ، فيرمي بها إليَّ .

وورد أيضاً في كتاب الله المجيد : ﴿ ما كانَ لِنَبيٍّ أن يَكونَ لَهُ أسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ في الأرْضِ ﴾ [الأنفال : ٦٧/٨] ، ﴿ ياأيُّها النَّبيُّ قُلْ لِمَنْ في أيديكُم مِنَ الأسْرَى إن يَعْلَمِ اللهُ في قُلوبِكُم خَيراً يُؤتِكُم خَيراً مِمّا أُخِذَ مِنكُم ويَغْفِر لَكُم واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٠/٨] .

تلـك .. بعض أحكام الشَّريعـة الإسـلاميَّـة عن حقـوق المقاتِلين وضحايا النِّزاعات المسلَّحة في خلفيَّـة عربيَّـة [ذُكِرَت] بقـدر مـا يسمـح بـه المجـال ، وكُتُبُ الفقـه تـزخر بـالكثير من الكتابات تحت مصنَّف السِّيَر أو المغازي ، حيث أضـاف الفقهـاء التفريعـات تكملـة لـلأُصـول ، وواصلـوا الأحكام فسطّروا بـاجتهـادهم[1] نظريَّـة متكاملـة في القـانـون الـدَّولي الإنســاني المعاصر ، سبقت به الشَّريعة الإسلاميَّـة المجتمع الـدَّولي بـأكثر من ألف عام ، بل لا تزال تسبق بما يطـالب بـه الفقهـاء المعـاصرون بمزيد من الحماية لضحايا النِّزاعات المسلَّحة .

وإذا كان لنا من قولة في ختام هذا الحـديث فهو أن الحرب وإن كانت ضرورة تقدَّر بقدرها إلاَّ أنها كما يقول ابن خلدون : « فإنَّ الحرب لم تزل واقعة في الخليقة منذ بدأها الله » .

وإذا كان من أهمِّ قواعد المنطق لاحترام قاعـدة قـانونيَّـة هو معرفتها ، فقد ألزمت قواعـد القـانون الـدَّولي الإنسـاني المعـاصر

(1) في الأصل : « فنسخ احتهادم » .

وعلى رأسها اتّفـاقيّـات جنيف الأربع لعـام ١٩٤٩ ، الـدُّول الأطراف فيها بالعمل على نشر المعرفة بهذه الأحكام .

وبهذا العرض الموجز اتّضح لنا أنّ قواعـد القـانون الـدَّولي الإنساني لا تخرج عن عباءة الإسلام بأيّ حال ، بل إنّ الكثير من قواعده تجد مصادرها في هذا الـدِّين الحنيف ، وعلى ذلـك فـإنّـه من السَّهل على الإنسان إذا مـا عرف أنّ قواعـد القـانون الوضعي تفرض عليه احترام قواعد معاملة ضحـايـا النِّزاعـات المسلَّحـة ، وأنّ الأمر فوق كـونـه قـاعـدة وضعيّـة فهـو قـاعـدة إنسـانيَّـة ، استقرَّت وترسَّخت في الوجدان الإنساني تخـاطب فيـه إنسـانيَّتـه فيحرص على احترامها وصون أحكامها » .

[ثمَّ يقدِّم الكتاب نمـاذج للمقـارنـة بين نصوص إسلاميَّـة ، وبين نصوص من اتِّفاقيَّات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩ ، نقدِّمهـا مع اقتراحات لتضاف ، وتصويبات لِتُتَدارك] .

[١]

تنصُّ المادَّة الثَّالثة ـ وهي مادَّة مشتركة في اتِّفاقيَّات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩ ـ على أنَّه يحظر على أطراف النِّزاعات المسلَّحة غير الدَّوليَّة :

ـ أعمال العنف ضد الحياة والشَّخص .

ـ الاعتداء على الكرامة الشَّخصيَّة ، وعلى الأخصِّ التَّحقير والمعاملة المزرية .

[جاء في كتاب الله المجيد : ﴿ ولَقَد كَرَّمْنا بَني آدَمَ ﴾ ، [الإسراء : ٦٢/١٧] .

وجاء في الحديث الشَّريف أنَّه ﷺ وقف لجنازة إنسان غير مسلم ، فقيل له : إنَّه غير مسلم ـ نصراني أو يهودي ـ ، فقال ﷺ : « أوَليس إنساناً ؟ » ، [البخاري في الجنائز : ١٣١٢] ، وقال ﷺ : « أنا شهيد أنَّ العباد كلُّهم إخوة » ، (رواه ابن حنبل عن زيد بن أرقم)] .

وتنصُّ المادَّة ١٤ من اتِّفاقيَّة جنيف الثَّالثة بشأن معاملة أسرى الحرب على أنَّ « لأسرى الحرب في جميع الأحوال حق احترام أشخاصهم وشرفهم » .

كما تنصُّ على المعنى ذاته المادة ٢٧ من الاتِّفاقيَّة الرَّابعة فيما يتعلَّق بحماية الأشخاص المدنيِّين في الأرض المحتلَّة .

[وجعل الكتاب قُبالة هذه النُّصوص الفقرة التَّالية] :

« النَّفس الإنسانيَّة أشرفُ النُّفوس في هذا العالم ، والبدن الإنساني أشرفُ الأجسام في هذا العالم » ، [الإمام فخر الدِّين الرَّازي في تفسيره للقرآن الكريم ، الموسوم (بمفاتيح الغيب)][1] .

---

(1) أرسل المشير (لورد رابرتس) إلى والدته رسالة في ١٨٥٧/٦/٢١ م يقول فيها : « إنَّ عقوبة القتل المؤثِّرة ، هي نَصْبُ الجاني على فم المدافع وإطلاقه ، إنَّه لمنظر رهيب جداً ، ولكنَّنا لا نستطيع التَّجنُّب عنه حالياً ، إنَّ هدفنا الوحيد هو أن نبرهن إلى هؤلاء (المسلمين الأشرار) بأنَّ الإنكليز سيبقون حكام الهند ومالكيها بنصر الله » ، من كتاب : (الأمير سيد صديق حسن خان ، حياته وآثاره) ، للدكتور محمد اجتباء النَّدوي ، ص ٩٧ .

[٢]

تنصُّ المادّة ٢٧ من اتّفاقيّة جنيف الثّالثة لعام ١٩٤٩ الخاصّة بمعاملة أسرى الحرب على أن « تُزَوِّد الدَّولةُ الحاجزة أسرى الحرب بكمّياتٍ كافيةٍ من الملابس ، والملابس الدّاخليّة ، والجوارب بحيث تكون ملائمة لجو الإقليم الَّذي يقيم فيه الأسرى ، وإذا كانت كساوي قوّات العدوّ المسلّحة الّتي تقع في يد الدّولة الحاجزة مناسبة لجوّ الإقليم ، يصير استعمالها لكساء أسرى الحرب » .

[يقابل هذا في الكتاب] :

« وكان [صلاح الدّين الأيُّوبي] رحمه الله يحسنُ معاملة الأسرى ، ويحضُّ البارزين منهم بحسن المعيشة وخلع الثّياب عليهم ، وعندما أحضر النّاس قتلاهم بعد المعركة ، وكنتُ حاضراً ذلك المجلس ، ولقد أكرم ـ رحمه الله ـ المتقدّمين منهم ، وأخلع على مقدّمي عسكر الإفرنسيس فروة خاصّة ، وأمر لكلٍّ واحد من الباقين بفروة خرجيّة لأنّ البرد كان شديداً .

وحين كانت المعركة أو الحصار تنتهي باستسلام الطَّرف الآخر ، كان ينفِّذ شروط الاستسلام بدقَّة ، بل ينفِّذها وفقاً لمصلحة المستسلمين أكثر مِمَّا تتطلَّبه الشُّروط أحياناً .

وحين يدفع الأسرى فداءهم يرسل من يحرسهم حتَّى يصلوا إلى مأمنهم » .

(عن كتاب (النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليوسفيَّة) لبهاء الدِّين بن شدَّاد) .

[٣]

القاعدة هي المساواة في المعاملة بين جميع الأسرى ، وهذا ما نصَّت عليه المادَّة ١٦ من الاتِّفاقيَّة الثَّالثة الخاصَّة بمعاملة أسرى الحرب .

إلاَّ أنَّ المادَّة ١٦ قد أشارت إلى المعاملة الأفضل الَّتي تمنح بسبب الحالة الصِّحيَّة للأسير ، أو وفقاً لعمره أو مؤهِّله أو مهنته .

وتطبيعاً لذلك فقد نصَّت المادَّة ٤٤ من الاتِّفاقيَّة ذاتها على أنَّه « يجب معاملة الضُّبَّاط ومن في حكمهم من الأسرى بالاعتبار الواجب لرتبهم وسنِّهم » .

[وفي الإسلام] :

« .. وبعد أن فتح الله عليه بالنَّصر والظَّفر ، جلس السُّلطان صلاح الدِّين الأيوبي في دهليز الخيمة ، فإنَّها لم تكن قد نُصِبَت ، والنَّاس يتقرَّبون إليه بالأسرى وبمن وجدوه من المقدَّمين .

ونُصِبَت الخيمة ، وجلس فرحاً مسروراً شاكراً لما أنعم الله عليه ، ثمّ استحضر الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط[1] ، وناول الملك جفري شَرْبَة من جُلاّب[2] بثلج ، فشرب منها ، وكان على أشدّ حال من العطش .

وكان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أنّ الأسير إذا أكل أو شرب من مال مَنْ أسره صار آمِناً ، فقصد السّلطان بذلك الجري على مكارم الأخلاق » .

(عن كتاب « النّوادر السّلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة » لبهاء الدّين بن شدّاد) .

نظّم البروتوكول الأوّل لعام ١٩٧٧ الملحق بأحكام اتّفاقيّات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩ قواعد الحماية العامّة للسُّكّان المدنيّين

---

(1) أرناط : أمير حصن الكرك ، وصفته المصادر الأُوربيّة بأنّه نموذج للفارس اللّصّ في عصره ، اتّصف بالجشع ، وبعدم الوفاء ، والغدر والوحشيّة ، والتّعصّب الأعمى .

(2) الجُلاّب : شراب الورد ، فارسي معرّب .

والأعيان المدنيَّة والأعيـان الثَّقـافيَّـة وأمـاكن العبـادة والأعيـان والمواد الَّتي لا غنى عنها لبقاء السُّكَّان المدنيِّين ، وذلك ضـد آثـار القتال .

المـادَّة ٥١ : « السُّكَّـان المـدنيُّون لا يجوز أن يكـونـوا محـلاً للهجوم » .

المـادَّة ٥٢ : « الأعيـان المـدنيَّـة لا تكـون محـلاً للهجـوم أو هجمات الرَّدع » .

المادَّة ٥٣ : « الأعيان الثَّقافيَّة وأماكن العبادة لا تكون محلاً للهجوم أو الرَّدع » .

المـادَّة ٥٤ : « يحظر مهـاجمــة أو تــدمير المـواد الغــذائيَّــة والمناطق الزِّراعيَّة والمحاصيل والماشية ومرافق المياه .. الَّتي لا غنى عنها لبقاء السُّكَّان المدنيِّين » .

[ومقابل هذه النُّصوص أورد الكتاب] :

« .. لا تخـونـوا ، ولا تغلُّـوا ، ولا تغــدروا ، ولا تمثِّلــوا ، ولا تقتلوا طفـلاً صغيراً ولا شيخـاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا

نخلاً ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تـذبحـوا شـاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاَّ لمأكلة » .

(من وصـايـا الخليفـة أبي بكر الصّـدّيـق إلى قـائـد الجيش العربي المتَّجه إلى بلاد الشَّام ، أُسامة بن زيد ، « تـاريخ الرُّسل والملوك لابن جرير الطَّبري ») .

☆ ☆ ☆

[٥]

نصّت المادّة ٨٢ من اتّفاقيّة جنيف الرّابعة لعام ١٩٤٩ بشأن حماية المدنيّين وقت الحرب على أن « .. يقيم أفراد العائلة الواحدة ، وعلى الأخصّ الوالدان والأطفال معاً طوال مدّة الاعتقال في معتقل واحد .. ويجوز للمعتقلين أن يطلبوا أخذ أطفالهم غير المعتقلين والّذين يتركون دون رعاية عائليّة ، ليُعتقوا معهم .

يقيم أفراد العائلة الواحدة المعتقلون ، كلّما أمكن ، في المبنى نفسه ، ويخصّص لهم مكان إقامة منفصل عن باقي المعتقلين ، مع التّسهيلات اللأّزمة للمعيشة في حياة عائليّة .

كما نصّت المادة ٧٤ من البروتوكول الأوّل الملحق باتّفاقيّات جنيف الأربعة على جمع شمل الأسر المشتّتة نتيجة المنازعات المسلّحة » .

[وفي تاريخنا الإسلامي] :

يذكر أنَّ الخليفة العبَّاسي المعتصم بالله أخذ أحد حصون أرمينية عنوة بعد معركة عموريّة ، فأمر ألاَّ يفرَّق بين أعضاء العائلات الّتي وقعت في الأسر .

(عن كتاب « الحضارة العربيَّة في القرن الرّابع الهجري » لآدم ميتز) .

[حتّى في عالم الحيوان ، قال ابن مسعود : كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فانطلق لحاجته ، فرأينا حُمَّرة ـ الْحُمَّرَةُ والْحُمَرَةُ : طائر من العصافير ، وجمعها : الْحُمَرُ والْحُمَّرُ ، [اللّسان : حمر] ـ معها فَرْخان ، فأخذنا فَرْخَيْها ، فجاءت الْحُمَّرة تَعْرُشُ ـ التَّعريش : أن ترتفع وتظلّل بجناحَيْها على مَن تحتها ، [اللّسان : عرش]فجاء النَّبيُّ ﷺ فقال : من فجع هذه بولدها ؟ رُدُّوا ولدها إليها » .

وفي الحديث الشَّريف : رأت بَغِيٌّ من بغايا بني إسرائيل كلباً يُطيف بِرَكِيَّةٍ ـ بئر ـ قد كاد يقتله العطش ، فنزعت مُوقَها

ـ خُفَّها ـ فاستَقَتْ به فسَقَتْهُ فغُفِرَ لها به ، (رواه البخاري ومسلم) .

واشتدَّ عطش رجلٍ بطريق فنزل بئراً فشرب منها ، ثمَّ رقِيَ ، فإذا كلب يلهثُ الثَّرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا من العطش مثل الَّذي كان بلغني ، فنزل في البئر ، فملأ خُفَّه ثمَّ أمسكه بفيهِ حتَّى رقِيَ ، فسقى الكلبَ ، فشكر اللهُ له فغفرَ له ، فقالوا : يا رسول الله وإنَّ لنا في هذه البهائم لأجراً ؟ فقال عليه الصَّلاة والسَّلام : « في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجر » ، (رواه البخاري ومسلم) .

وجاء في (شجرة المعارف ، ص ١٦٨) للعزِّ بن عبد السَّلام ، تحت عنوان : الإحسان إلى الدَّوابِّ المملوكة : وذلك بالقيام بعلفها ، أو رعيها بِقَدْرِ ما تحتاجُ إليه ، وبالرِّفق في تحميلها ومسيرها ، فلا يكلِّفُها من ذلك ما لا تقدر عليه ، وبأن لا يَحْلُبَ من ألبانها إلاَّ ما فضل عن أولادها ، وأن يهنأ ـ يطلي بالقطران ـ جرباها ، ويداوي مرضاها ، وإن ذبحها فليحسن ذبحها ، بأن يُحِدَّ شفرتَهُ ، ويُسرع جَرَّته ـ جذبه ـ مع

إضجاعها برفق ، وأن لا يتعرَّضَ لها بعد ذبحها حتَّى تبرُد ، وإن كان بعضُها يؤذي بعضاً بنطح أو غيره ، فليفرِّق بينها وبين ما يؤذيها ..

وقال ﷺ : « إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبلَ حظَّها من الأرض ، وإذا سافرتم في السَّنَة فبادروا بها نِقْيَها » ، وفي شرح النَّووي لصحيح مسلم : النَّقي هو المخ ، ـ مخ العظام ـ والمعنى : يذهب نُقِيُّها ، وربَّما كَلَّت ووقفت] .

[٦]

نظّم البروتوكول الأوّل لعام ١٩٧٧ والملحق بأحكام اتّفاقيّات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩ وسائل استخدام القوّة العسكريّة وقيود هذا الاستخدام .

المادّة ٤٠ : « يحظر الأمر بعدم إبقاء أحد على قيد الحياة ، أو تهديد الخصم بذلك ، أو إدارة الأعمال العدائيّة على هذا الأساس » .

المادّة ٤١ : « لا يجوز أن يكون الشّخص العاجز عن القتال محلاً للهجوم ، والمعروف أنّ الأسرى والجرحى يعتبرون عاجزين عن القتال » .

المادّة ٧٦ : « يجب أن تكون النّساء موضع احترام خاص ، وأن يتمتّعن بالحماية ، ولا سيما ضد الاغتصاب والإكراه على الدّعارة »(1) .

---

(1) ☆ ذكرت الأمم المتّحدة في تقديراتها أنّ عشرين ألف فتاة مسلمة اغتصبن =

المادّة ٧٧ : « يجب أن يكون الأطفال موضع احترام خاص ، وأن تكفل لهم حماية خاصّة » .

يقابل ما سبق في الصّفحة ذاتها :

« إذا هزمتموهم ، فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثّلوا بقتيل ، ولا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً إلاّ بإذن ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً ، ولا تعذّبوا النّساء بأذى وإن شتمنكم وشتمن أُمراءكم ، واذكروا الله لعلّكم ترحمون » .

[من وصايا الخليفة علي بن أبي طالب لجنوده ، عن كتاب (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد] .

☆ ☆ ☆

= في البوسنة والهرسك ، [لندن ـ هيئة الإذاعة البريطانيّة ـ مساء : ١٩٩٥/٤/١٥] ، ناهيك عن المقابر الجماعيّة الّتي اكتُشِفَت بعد وقف إطلاق النّار ، وخصوصاً في الأشهر الأُولى ١٩٩٦ م .

[٧]

نصّت اتّفاقيّات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩ على حظر المعاملة الثّأريّة ضدّ ضحايا النّزاعات المسلّحة ، وهذا أمر واضح الدّلالة على ضرورة احترام حقوق الضّحايا ، ويتميّز القانون الدّولي الإنساني عن سائر قواعد القانون الدّولي العام بهذه الصّفة .

وتنصُّ المادةُ ٢٠ من البروتوكول الأوّل لعام ١٩٧٧ المكّمل لأحكام اتّفاقيّات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩ على أنّه « يحظر الرّدع ضد الأشخاص والأعيان » .

[وجاء في نصف الصّفحة المقابل لهذا النّص] :

اضطرَّ الخليفة الأُموي معاوية بن أبي سفيان عند عقد معاهدة صلح مع الرُّوم ، أن يأخذ منهم رهائن ، ضماناً لغدرهم ، ولكنّهم غدروا به ، فردّ عليهم الرّهائن قائلاً : « إنّ مقابلة الغدر بالوفاء ، خير من مقابلة الغدر بالغدر » .

(عن كتـاب « تـاريـخ الرُّسـل والملـوك » لابن جرير الطَّبري) .

[لم أعثر على هـذا النَّصّ في (الطَّبري) في خـلافـة معاوية بن أبي سفيـان ، ومن الشَّواهـد المنـاسبـة في صـدد نصّ المـادَّة ٢٠ من البروتـوكـول الأوَّل لعـام ١٩٧٧ ، المكمِّـل لأحكام اتِّفاقيَّات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩ :

ـ مـوقف رسـول الله ﷺ عنـد فتـح مكَّـة ، حيث قـال : « يـا معشر قريش ، ويـا أهـل مكَّـة ، مـا تَرَون أنِّي فـاعـلٌ بكم ؟ » ، فـأجـاب سهيل بن عمرو : نقول خيراً ، ونظنُّ خيراً ، أخٌ كريم ، وابنُ أخٍ كريم وقد قـدِرتَ ، فقـال ﷺ : « أقول كما قـال أخي يـوسف : لا تثريب ـ أي لا تـأنيب ولا لـوم ـ عليكم اليـوم ، يغفر الله لكم وهـو أرحم الرَّاحمين ، اذهبـوا فـأنتم الطُّلقاء » .

ـ وتسامحُ المسلمين الفـاتحين عنـد فتح دمشق ، والقـدس ، والإسكندريَّة ، والدَّيْبُل ـ قرب كراتشي حاليّاً ـ جـاء في (فتح

السّند ٢٣٨٢) : « وعامل المسلمون الأهالي معاملة حسنة وشهامة » ، وجاء في الصّفحة ٢٤٧٠ : ثمّ أعطى الأمان للصُّنّاع والتُّجّار وعوام النّاس ، وتركوا بعضاً من أسراهم ـ المحاربين ـ وتشكّلت محكمة لردّ المظالم ، وتُرك البراهمة ـ رهبان المعابد وحكماؤها ـ وأعطاهم محمد بن القاسم الأمان .. »] .

☆ ☆ ☆

[٨]

تنصُّ المـادَّة ١٤ من الاتِّفـاقيَّــة الثَّــالثــة على أنَّ « لأسرى الحرب ، في جميـع الأحـوال ، حـق احترام أشخـاصهم وشرفهم ، وأنَّـه يجب معـاملـة النِّسـاء من الأسرى بكلِّ الاعتبــار الـواجب لجنسهنَّ ، وفي جميع الأحوال يجب أن يحصلن على المعاملة الحسنة نفسها الَّتي يعامل بها الرِّجال » .

[**يقابل هذا النَّص**] :

بعد انسحاب جيش خـالـد بن الوليـد من حصـار دمشق ، أسر الرُّوم جــزءاً من مـؤخِّرة الجيش ، كانت فيـــه النِّســـاء والأطفال ، وكان بين النِّسـاء (خولـة بنت الأزور) وعـدد من عجـائـز تُبَّـع وحِمْيَر اليمنيَّـة ، الـلائِّي اعتـدن ركـوب الخيـل ، وخوضات اللَّيل ، والهجوم على القبائل .

وفي محاولة للدِّفـاع عن كرامتهنَّ وشرفهنَّ ، حرَّضت خولـة النِّساء أن يحملن أعمـدة الخيـام ، ويحملن بهـا على جنـد الرُّوم ، فلعل الله ينصرهنَّ أو يسترحن من مَعَرَّة السَّبي .

وكانت خولة في مقدّمتهنّ تنشد :

نحن بنات تُبّع وحِمْيَر
وضرْبُنا في القوم ليس ينكر

وحينما وصل جيش خالد ليخلّصهم ورآهن يقاتلن قال : « لا عجب من ذلك ، إنهنّ بنات العمالقة ونسل التّبابعة » ، (عن كتاب « فتوح الشّام » للواقدي) .

[الدّليل الأقوى ، والّذي يتناسب مع نصّ المادّة ١٤ من الاتّفاقيّة الثّالثة المتعلّقة بحصول النّساء على المعاملة الحسنة الّتي يُعامل بها الرّجال ، التّالي :

مرّ رسول الله ﷺ يوم حُنَيْن بامرأة مقتولة ، والنّاس مجتمعون عليها ، مما يدلّ على أنّ هذا الحادث مرفوض ومستغرب ، ومستهجن نادر ، فأرسل إلى خالد بن الوليد : « إنّ رسولَ الله ينهاكَ أن تقتل وليداً ، أو امرأة ، أو عسيفاً » ، أي : أجيراً ، ولما وقف ﷺ عليها قال : « ما كانت هذه لتُقاتِل ، ونهى عن قتل الذُّرِّيّة » ، [ابن سعد ١٥١/٢ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير ١٢٨/٣ ، ابن هشام ٧٥/٤] .

وفي [الطَّبري ٥٤٠/٤] : شتمت صفيَّة بنت الحارث عليّاً ودعت عليه : ياعلي ، يا قاتل الأحبَّة ، يا مفرِّق الجمع ، أيتَمَ اللهُ بنيك منك .. فلم يرد عليها شيئاً ، واقترح أحدهم بمعاقبتها ، فغضب علي ، وقال : صَه ، لا تهتِكَنَّ ستراً ، ولا تدخلن داراً ، ولا تهيجنَّ امرأةً بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وسفَّهن أُمراءكم وصلحاءكم ، فإنهنَّ ضعاف ، ولقد كنَّا نؤمر بالكفِّ عنهنَّ وإنهنَّ لمشركات ، وإنَّ الرَّجل ليكافئ المرأة ويتناولها بالضَّرب ، فيُعَيَّر بها عَقِبُه من بعده ، فلا يبلغني عن أحدٍ عرض لامرأة فأُنكِّل به شرار النَّاس .

وأنهكَ ـ كرَّم الله وجهه ـ رَجُلَيْن عقوبة ، ضربهما مئة مئة على يد القعقاع بن عمرو ، إنَّهما رجلان من أزد الكوفة ، لأنَّهما شتما عائشة رضي الله عنها ؛

قال الأوَّل : جُزيتِ عنَّا أُمَّنا عُقوقاً .

وقال الآخر : ياأُمَّنا توبي فقد خَطيتِ] .

☆ ☆ ☆

[٩]

نظَّمت الاتِّفاقيَّة الأُولى لعام ١٩٤٩ ، المتعلِّقة بتحسين حال الجرحى والمرضى من أفراد القوَّات المسلَّحة في الميدان ، قواعد احترام الوحدات والمنشآت الطِّبيَّة ، فنصَّت المادَّة ١٩ على أنَّه « لا يجوز بحالٍ ما الاعتداء على المنشآت الثَّابتة والوحدات الطِّبيَّة المتحرِّكة التَّابعة للخدمات الطِّبيَّة ، بل تُحترم وتُحمى في جميع الأوقات بواسطة أطراف النِّزاع ، وإذا سقطت في أيدي الطَّرف المعادي يترك لأفرادها حرِّيَّة مواصلة واجباتهم .. » .

وقد أكَّدت على احترام حماية أفراد الخدمات الطِّبيَّة وأفراد الهيئات الدِّينيَّة المادَّة ١٥ من البروتوكول الأوَّل المكَمِّل لأحكام اتِّفاقيَّات جنيف .

قابل هذا النَّص :

دخل عليٌّ بن أبي طالب البصرة بعد موقعة الْجَمَل بثلاثة أيَّام ، وكانت عائشة أُم المؤمنين تنزل في دار عبد الله بن خلف

الخــزاعي ، وكانت أعظم دار في البصرة ، وكان عليّ يعلم أنّ في حُجُرات الدّار الكثيرة ، عدداً كبيراً من الجرحى ، من أصحـاب عائشة الّذين اشتركوا في قتاله في موقعة الجمل ، آوتهم عـائشـة في هذه الدّار ، وأمرت بتمريضهم حتّى يبرؤوا .

ورغم علم علي بوجودهم ، إلاّ أنّـه ذهب لزيـارة عـائشـة هو وأصحابه ، وانصرف وكأنّه لا يعلم شيئاً ، [عن كتاب : (الفتنـة الكبرى) لطه حسين][1] .

---

(1) المصدر الأوثق : جاء في الطّبري ٥٣٩/٤ و ٥٤٠ : « دخل على عائشة فسلّم عليها ، وقعد عندهـا » ، وأشير إلى الأبواب من الـدّار ، وأخبر عليٌّ بمكان الجرحى ، فتغافل عنهم .

[١٠]

أشارت اتّفاقيّة جنيف الأُولى لعام ١٩٤٩ المتعلّقة بتحسين حال الجرحى والمرضى من أفراد القوّات المسلّحة في الميدان ، إلى تنظيم دفن الموتى ، واحترام جثثهم ، وإجراء الدّفن وفقاً للطُّقوس الدّينيّة حسبما تسمح الظروف [المادّة ١٧] .

كما نظّمت المواد ١٨ وما بعدها من الاتّفاقيّة الثّانيّة ، بشأن تحسين حالة الجرحى والمرضى والغرقى بالقوّات المسلّحة في البحار ، الإجراءات الواجب اتّباعها للبحث عن جثث الغرقى وأسلوب دفنهم حسب الطُّقوس والأعراف الدّينيّة .

كما ألزمت المادّة ٣٤ من البروتوكول الأوّل باحترام رفات الأشخاص الّذين يتوفون بسبب الاحتلال ، أو أثناء الاعتقال ، أو بسبب العمليّات الحربيّة .

يقابل هذه النُّصوص :

حَمَلَ عتبةُ[1] بن عامر الجهني إلى الخليفة أبي بكر الصِّدِّيق رأسَ أحد القتلى من المشركين ، فغضب أبو بكر لذلك ، وكتب إلى قوَّاده :

« لا يُحْمَل إليَّ رأس ، وإلاَّ بغيتم ـ أي جاوزتم الحدَّ للتَّشفِّي ـ ولكن يكفيني الكتاب والخبر » ، (شرح كتاب (السِّير الكبير) لمحمد بن الحسن الشَّيباني) .

[من آداب الإسلام في الجهاد : عدم التَّمثيل بالقتيل ،

---

(1) في الأصل : عتبة ، وصوابه : عقبة بن عامر الجهني ، حمل إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه رأس يَنَاق البطريق ، فأنكر ذلك ، فقيل له : يا خليفة رسول الله ، إنَّهم يفعلون ذلك بنا ، قال : فاسْتِنانٌ بفارس والرُّوم ؟ لا يُحمل إليَّ رأس ، إنما يكفي الكتاب والخبر .
وفي رواية : قال لهم : لقد بغيتم ، أي تجاوزتم الحدّ .
وفي رواية : كتب إلى عُمَّاله بالشَّام ، لا تبعثوا إليَّ برأس ، ولكن يكفيني الكتاب والخبر .

شرح كتاب السِّير الكبير للشيباني ١/١١٠
معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية / ١٩٥٧م

قال ﷺ عندما رأى الحمزة - بعد أُحُد - قد بُقِرَ بطنه عن كبده ، ومُثِّل به : « لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأُمثِّلنَّ بثلاثين رجلاً منهم » ، وقال المسلمون لَمَّا رأوا حزن رسول الله ﷺ وغيظه على ما فُعِلَ بعمِّه الحمزة : والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدَّهر ، لنمثِّلن بهم مُثْلَةً لم يمثِّلها أحد من العرب ، فأنزل الله عزّ وجلّ في قول رسول الله ﷺ ، وقول أصحابه : ﴿ وإن عاقَبْتُم فَعاقِبوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُم بِهِ ولَئِن صَبَرْتُم لَهُوَ خَيرٌ لِلصَّابِرينَ ، واصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلاَّ بِاللهِ ولا تَحْزَن عَلَيْهِم ولا تَكُ في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرونَ إنَّ اللهَ مَعَ الَّذينَ اتَّقَوْا والَّذينَ هُمْ مُحْسِنونَ ﴾ ، [النَّحل : ١٢٦-١٢٨] ، فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن الْمُثْلَةِ ، وقال ﷺ : « بل نصبر ، وكفِّر عن يمينه » ، (ابن هشام ٣٩/٣ ، السِّير الحلبيَّة ٢٦١/٢ ، الرَّوض الأنزه (مخطوطة) ورقة ٤ ، البداية والنهاية ٤٠/٤ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير ٧٩/٣)] .

☆ ☆ ☆

[١١]

نصّت المـادّة ٣٧ من البروتـوكـول الأوّل المكمّـل لأحكام الاتّفاقيّات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩ على حظر الغـدر ، حيث يحظر قتل الخصم أو إصابته أو أسره باللّجوء إلى الغـدر ، ويعتبر من قبيل الغدر تلك الأفعـال الّتي تستثير ثقـة الخصم ، مع تعمّـد خيانة هذه الثّقة ، والّتي تدفع الخصم إلى الاعتقاد بأنّ لـه الحق ، أو أنّ عليه التزاماً بمنح الحماية طبقاً لقواعد القـانون الـدّولي الّتي تطبّق في المنازعات المسلّحـة ، ولا شـكّ أنّ توقيع اتّفـاقيّـة تلزم أطرافها باحترامها .

نصّت المادّة الخامسة من اتّفاقيّة جنيف الرّابعـة على قواعـد معاملة المحميّين مرتكبي أفعال الغدر والخيانة والجاسوسيّـة ، قبل المادّة ٣٧ المطبوعة بالفعل .

أمّا في العلاقات الدّوليّة في الإسلام :

أخبر عُميرُ بن الأسعـد أميرَ المـؤمنين عمر بن الخطّـاب ، بأنّه : « بين المسلمين والرّوم مدينة يقـال لهـا عَرْبَسُوس ، وأنّهم

يخبرون عدوَّنا بعوراتنا ، وقد بدت منهم الخيانـة فلا يظهروننـا على عورات الرُّوم » .

فقال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه : « إذا رَجعتَ إليهم ، فخيِّرهم أن تعطيهم مكان كلٍّ شــاةٍ شــاتَيْن ، ومكان كلٍّ بقرة بقرَتَيْن ، ومكان كلٍّ شيءٍ شيئَيْن ، فـإن رضـوا فـأعطهم إيّـاهـا وأجلهم عن هذه القرية ، وإن أبَوْا ذلـك فـانبـذ إليهم ، وأمهلهم سَنَةً ، ثمَّ حاربهم »(1) .

(عن كتاب (الشَّريعة الإسلاميَّة والقانون الدَّولي العـام) للمستشار علي منصور) .

---

(1) ﴿ وإمَّـا تخـافَنَّ مِن قَـوْمٍ خِيـانَـةً فَـانْبِـذ إلَيْهِمْ عَلى سَـواءٍ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الخائنينَ ﴾ ، [الأنفـال : ٥٨/٨] ، جـاء في [صفوة التَّفـاسير ٥١١/١] : إن أحسست يـا محمـد من قوم معـاهـدين خيـانـة للعهـد ونكثـاً بـأمـارات ظاهرة ، اطرح إليهم عهدهم على بيِّنة ووضوح من الأمر ، قـال النَّحـاس : هذا من معجز ما جاء في القرآن ممَّا لا يوجد في الكلام مثله على اختصـاره وكثرة معانيه ، والمعنى : وإمَّا تخافنَّ من قوم ـ بينك وبينهم عهد ـ خيانة فانبـذ إليهم العهـد ، أي قل لهم قـد نبـذت إليكم عهـدكم ، وأنـا مقـاتلكم ، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء ، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك ، فيكون ذلك خيانةً وغدراً ، (تفسير القرطبي ٣٢/٨) .

[١٢]

ألزمت المادّة الأُولى من اتّفاقيّة لاهاي الثّالثة لعام ١٩٠٧ الأطراف المتعاقدين بألاّ يبدؤوا ممارسة أعمال الحرب قبل إخطار سابق لا لبس فيه ، ويكون إمّا في صورة إعلان حرب بسبب إنذار نهائي تذكر فيه الدّولة موجّهة الإنذار طلباتها ، وتطلب إجابتها ، وإلاّ اعتبرت الحرب قائمة .

إلاّ أنّ اتّفاقيّة لاهاي لا تتضمّن جزاءً معيّناً على الطّرف المتسبّب في نشوب الحرب ، ومن ثمّ يخضع إعلان الحرب لقواعد المسؤوليّة الدّوليّة الّتي يعالجها القانون الدّولي العام .

عالجت المادّة ٤٩ من الاتّفاقيّة الرّابعة حظر قيام دولة الاحتلال بترحيل السُّكّان المدنيّين سواء فرديّاً أم جماعيّاً من الأرض المحتلّة ، كما حرّمت على دولة الاحتلال أن تقوم بنقل بعض سكّانها المدنيّين إلى الأرض الّتي احتلّتها ، وذلك قبل المادّة المطبوعة بالفعل ، وهي اتّفاقيّة لاهاي .

يقابل هذا في الإسلام :

وفـد قوم من أهل سمرقنـد[1] على الخليفـة الأُمـوي عمر بن عبد العزيز ، وشكوا إليه قتيبـة بن مسلم البـاهلي ، حيث دخل مدينتهم غدراً ، وأسكن فيها المسلمين ، فكتب عمر إلى واليـه في الولاية المجاورة[2] ، وأمره بـأن يرفع شكواهم إلى القـاضي ، فـإن ثبتت الواقعة يأمر بإخراج المسلمين من سمرقنـد ، وقـام القـاضي جُميع بن خـاطر البـاجي[3] بتحقيـق الـواقعـة ، وأمر بـإخراج المسلمين من المدينة .

(عن كتاب (فتوح البلدان) للبلاذري)[4] .

☆ ☆ ☆

---

(1) سمرقنـد : من أشهر مـدن مـا وراء النَّهر ، وهي قصبـة الصُّغـد ، [معجم البلدان ٢٤٦/٣] .

(2) الوالي هو : سليمان بن أبي السُّرِّي ، والي سمرقند ذاتها .

(3) القاضي هو : جُميع بن حاضر النَّاجي .

(4) بل هي في الطَّبري ٥٦٧/٦ ومـا بعـدهـا ، وليست في (فتوح البلـدان) ، حتَّى إنَّ اسم القـاضي جُميع بن حـاضر النَّـاجي لم يرد مطلقـاً في (فتوح البلدان) .

ست كلمات تلخّص كلَّ القانون الدَّولي الإنساني ، قالها رسول الله ﷺ : « أنا نبيٌّ الرَّحمة ، وأنا نبيٌّ الملحمة »[1] ، أي لا يجوز الخوض في الملحمة ، إلاَّ وأنت محكوم بضوابط الرَّحمة ، فحين الضَّرورة الحربيَّة ، وبعد محاولات صادقة لدفعها ، لا ننسى ، ولا نتخلَّى عن الرَّحمة ، عن الإنسانيَّة .

بينما في القانون الدَّولي اليوم ، على الرَّغم من اتِّفاقيَّات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩ م ، والبروتوكولَيْن الأوَّل والثَّاني لعام ١٩٧٧ م ، إذا تكلَّمت الأسلحة ، سكتت القوانين وأُخْرِسَت ، أي لا ضوابط ، ولا رحمة ، ولا إنسانيَّة .

والأصل أن تنطق قوَّة الحقّ ، ولكن النَّاطق اليوم حقٌّ القوَّة ، وبذلك يكون القانون الدَّولي (الإنساني) نظرة ما يجب أن يكون ، أو ما نتمنَّاه أن يكون ، ولكن لا ملاحقة لمنتهك

---

(1) مسند الإمام أحمد ٣٩٥/٤ : « أنا محمد وأحمد والمُقَفِّي ـ آخر الأنبياء كما في اللِّسان : قفا ـ والحاشر ـ الَّذي يَحْشُرُ النَّاسَ خلفه وعلى ملَّته دون ملَّة غيره ، اللسان : حشر ـ ونبي الرَّحمة ، ونبي التَّوبة ، ونبي الملحمة » .

هذه القوانين ، ولا عقوبات على الـدُّول الَّتي تطبِّق الحقَّ للقوَّة ، ومجلس الأمن يطبِّق عقوباته على الضَّعيف الَّـذي يرى وينـادي بـالقوَّة للحقِّ ، ولا عقـوبـات على من ينفِّـذ الحـق للقـوَّة ، مـع عقوبـات مؤلمـة موجعـة على دول أُخرى مردُّه خلـل المكاييـل ، وألاَّ رقيب ملزم للقانون الدَّولي (الإنساني) .

إنَّ القانون الـدَّولي (الإنسـاني) توصيـات ، ومـا يجب أن يكون .

أمَّـا في الإسـلام فهـو جـزء من عقيـدة المسلم ، إنَّـه دين وعبادة ، فكرامـة الإنسـان الشَّخصيَّـة ، وعـدم مسـاس المـدنيِّين ودور عبـادتهم ، ومـوادِّهم الغـذائيَّـة ، أو الغـدر بهم ، الرَّحمـة في معاملة الأسرى ، حماية البيئة ، حماية المرأة والطِّفل والشُّيوخ .. مع تحريم التَّمثيل بالقتلى .

ليست وصايا ، إنَّهـا جزء من دين ، جـانب من عقيـدة ، فلا رأي ولا اجتهاد ، يعاقب ويثاب المسلم عليها .

فإن كان ٧٥٪ من أحكام القانون الدَّولي اليوم مقتبسة ، أو موجودة في الإسلام ، فالإسلام بالأمس ، واليوم وغداً الرَّافد الأغزر لأنْسَنَةِ الإنسان ، وعيشه في كنف الطُّمأنينة والرَّحمة والإنسانيَّة الحقَّة .

☆ ☆ ☆

الباب الثاني

نهر
يبحث عن مجرى

الفصل الأوَّل

المجرى الَّذي جَفَّ

في أوائل القرن التَّاسع عشر ، نوَّه فون جنتز Von Gentz [١٧٦٤ ـ ١٨٣٢ م] ، أمين سر مؤتمر برلين الشَّهير في تاريخ أوربَّة السِّياسي ، الَّذي انعقد في سنة ١٨١٥ م « أنَّ المجتمعين وعدوا من تلقاء أنفسهم بإقامة إصلاح عام شامل في أُوربة ، كما ضمنوا السِّلم العام » ، ولكنَّه ما فتئ أن أعقبه في آخر تنويهه بقوله : « إنَّ المؤتمر انتهى بغير أن يقوم بأمر ذي بال ، أو يتدبَّر في نظام شامل ، أو يفكِّر في خيرٍ عام يمكن أن يكافئ الإنسانيَّة على آلام حملتها مدَّة طويلة ، أو يكفل لها السِّلم في المستقبل »(١) .

وهذا ما كان ..

---

(١) (الكتاب) : المجلَّد الثَّالث ، السَّنة الثَّانية ، الجزء الأوَّل ، تشرين الثَّاني (نوفمبر) ١٩٤٦ م ، ذي الحجَّة ١٣٦٥ هـ ، ص ٢٦ .

كتب الكابتن ستيفنز بحثاً عنوانه : (قرن من الحروب فيما بين ١٨١٥ ـ ١٩١٥ م) ، فتبيَّن أنَّه قد شُنَّت في هذا القرن الحروب التَّالية :

بريطانية : ٣٨ حرباً مُدَّتها ٦٤ سنة .

فرنسة : ١٧ حرباً مدَّتها ٥٨ سنة .

روسية : ١٣ حرباً مدَّتها ٢٨ سنة .

إيطالية : ٩ حروب مدَّتها ١٤ سنة .

ألمانية : ٦ حروب مدَّتها ١٠ سنوات .

الولايات المتَّحدة : ٥ حروب مدَّتها ١١ سنة .

اليابان : ٣ حروب مدَّتها ٦ سنوات .

أسباب هذه الحروب اقتصاديَّة ، الحصول على الموادّ الخام الرَّخيصة لتعمل بها المصانع ، والتَّنافس على الأسواق العالميَّة لبيع ما أنتجته المصانع ، وهذا من العوامل الَّتي أوجدت الاستعمار بصورته البشعة ، وآثاره المدمِّرة .

مدنيَّة الغرب ، مدنيَّة التَّاجر ، مدنيَّة المنفعة ، مدنيَّة المنافسة على المال ، والمنافسة غير المقيَّدة بقيم ، برقيب ذاتي إلهي ـ حيث لا ظُلم ولا عَسْف ـ[1] منافسة تمحو فضيلة الإيثار ، وتبعد الجانب الإنساني حيث الخير المحض المجرَّد هدف وغاية ، وحينما تنعدم الفضيلة ، وتُرْفَع لافتة الجشع : « أنا وليمت الآخرون » ، الأُمَّة من النَّاحية الاجتماعيَّة في خطر ، لأنَّ المادَّة هي الَّتي تقرِّر متانة الرَّوابط أو وهنها .

وحينما حُيِّدت القيم الأخلاقيَّة ، وعُبِدَت وسائل الإنتاج ، بدأ الخلل حتَّى في لبنة المجتمع الأُولى (الأُسرة) ، وأصبحت أزمة المدنيَّة الغربيَّة أزمة مادِّيَّة ، وهذا يخالف الفطرة الإنسانية حيث الرُّوح والمادَّة ، وكلُّ ما يسبح ضد تيار الفطرة الإنسانيَّة سينهار ، ولقد أدرك هذا السِّيناتور الأمريكي (وليم فولبرايت) الَّذي تولَّى رئاسة لجنة العلاقات الخارجيَّة في الكونغرس الأمريكي لعدَّة دورات ، وهو صاحب كتاب حماقة القوَّة The

(١) العَسْف : الأخذ على غير الطريق ، وكذلك التَّعسُّف والاعتساف [الصِّحاح : عَسَفَ] .

Arrogonce of Power ، حينما قال : « لقد وضعنا رجلاً على سطح القمر ، ولكن أقدامنا [هنا على الأرض] غائصة في الوحل » ، حيث الانحلال الخلقي والاجتماعي ، حتّى نكاح المحارم ، حدِّث ولا حرج :

ـ أكثر من مليون طفل أمريكي يُعتدى عليهم جنسياً سنويّاً .

ـ ١٢ مليون طفل بلا أب ـ غير شرعيين ـ في أمريكة .

ـ مليون حالة إجهاض (إسقاط الحمل) سنوياً في الولايات المتّحدة الأمريكيّة .

ـ مليون امرأة تلد سِفاحاً في أمريكة ، أكثر من نصفهنَّ في سنِّ المراهقة .

ـ ١٧ مليوناً شاذّون جنسيّاً في الولايات المتّحدة الأمريكيّة .

ـ أُسرة من كلّ عشر أُسَر أمريكيّة تمارس نكاح المحارم ،

والرَّقم الحقيقي أكبر من ذلـك ، فعـدد كبير من حـالات نكاح المحارم لا تصل إلى القضاء ، أو إلى الدَّوائر الصِّحيَّة .

ـ وضحايا (الإيدز) بالمئات يوميّاً .

وفي أُوربَّة بشكل عام :

ـ مليونا حالة إجهاض سنويّاً .

ـ ٧٥٪ من الأزواج يخونون زوجاتهم .

ـ ثمانية ملايين امرأة بالغة غير متزوِّجة في بريطانية ، ٩٠٪ منهنَّ يمارسن الجنس .

ـ حالة طلاق بين كلِّ حالَتَيْ زواج في بريطانية .

ـ وفي بعض الكنائس يتم عقد قران الرَّجل على الرَّجل على يد القسِّيس[(١)] .

---

(١) هذه الإحصائيّات نشرت عام ١٩٨٥ ، انظر (رسالة الجامعة) ، العدد ٢٨٧ الصَّادر بتاريخ ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥ ، اقتباساً من كتاب (الأمراض الجنسيَّة) للدكتور محمد البار ، وبعض أعداد (الشَّرق الأوسط) ، فالإحصائيّات اليوم أرقامها مرعبة أكثر .

وفي رومانية وصلت الإجهاضات في عام ١٩٩٣ إلى مستوى مخيف هو ٢٤٠٠ مقابل كل ١٠٠٠ ولادة [1].

وفي روسية اليوم أرقام الجريمة مذهلة مرعبة ، ومما يذكر هنا :

في السَّاعة الواحدة من ظهر يوم الخميس ١٩٩٠/٥/١٧ م ، كنت الضِّيف الوحيد في محاضرة دعت إليها أكاديميَّة العلوم في مدينة باكو عاصمة أذربيجان ، وكان المحاضر الدكتور قاسم كريموف ، وهو أُستاذ في أكاديميَّة العلوم في موسكو ، من أصل أذري ، يتقن العربيَّة .

عنوان محاضرته : البيروسترويكا (إعادة البناء) والإسلام

قبيل المحاضرة قُدِّمت ، وعُرِّف بي .

بدأ المحاضر بموجز سريع عن تاريخ الإسلام ، ثمَّ انتقل إلى الإسلام في القرن العشرين . فقال : إنَّ الإسلام يدخل أُوربّة ،

---

(١) (إلى الأمام) العدد ٢٢٩١ ، ١٩٩٥/١٢/١٥ ، عن :
(L.Express 17 1 1994)

وذكر روجيه غارودي وإسلامه ، وبيع دور العبادة في أوربَّة وتحويلها إلى مساجد ، وعرض صوراً لبعضها ..

ثمَّ انتقل إلى الإسلام دين العِلْم مع الأدبيّات والأخلاق .

ثمَّ تحدَّث عن نهضة المدارس الشَّرعيَّة في أذربيجان وبشكيريا .. وبعد أن قدَّم رأي عدد من الدُّول بالبروسترويكا ، قدَّم رأي البلدان العربيَّة أيضاً ، وممَّا قاله : سيفرح العرب كثيراً بحرِّيَّتنا ، ويمكن تأسيس قسم للشريعة في كلِّ معهد استشراق ، في كلِّ جمهوريَّة إسلاميَّة استقلَّت بعد تفكُّك الاتِّحاد السُّوفييتي ، وذلك لتعلُّم اللُّغة العربيَّة ، ودراسة الإسلام .

وختم بملاحظة رائعة هي :

لاحظ الأكاديميُّون في جامعة موسكو في الخمسينات والسِّتِّينات والسَّبعينات .. أن الجريمة والعصابات (المافيا) والمخدِّرات ، أقل بكثير في الجمهوريّات الإسلاميَّة ـ بالمقارنة ـ منها في أي رقعة أُخرى من الاتِّحاد السُّوفييتي ، وراحوا

يتساءلون عن السَّبب ، فقال لهم الدكتور قاسم كريموف : لا تشكِّلوا اللِّجان ، ولا ترسلوا البعثات لمعرفة الأسباب ، إنَّه سبب واحد ، إنَّه أثر الإسلام في نفوس أبناء هذه الجمهوريَّات الإسلاميَّة ، لقد حافظ على الأُسرة متماسكة إلى حدٍّ كبير ، وليس هذا بمتوافر في المجتمع الرُّوسي .

خرجت من قاعة المحاضرة وأنا أقول لمرافقي : إنَّ أمر الإسلام عجيب مدهش ، إنَّه يبقى في القلوب كامناً ، ثمَّ تتفجَّر ينابيعه في أجواء الحرِّيَّة ، فأنا أرى عظمته فيكم ، فبعد سبعين سنة من الحكم الذي ناهض الأديان ـ والإسلام خاصة كما كانوا يقولون عند مهاجمة الأديان ـ علمكم إسلامي وكذلك شعاركم ، وتتكلَّمون اليوم في قاعة المحاضرات حيث عدد كبير من العلماء الأكاديميين وتقولون : نحن مسلمون ، وأذربيجان مسلمة ، ولا توتر بين السُّنَّة والشِّيعة ، هذا ما نتمنّاه عندنا في أذربيجان ونتمنَّاه عالميّاً أيضاً ، فأيَّام النَّبي ﷺ لا سُنَّة ولا شيعة ، مسلم وكفى .

وفي مساء يوم هذه المحاضرة (الخميس ١٩٩٠/٥/١٧ م) دعاني خال مرافقي الأُستاذ ميرجلال يوسف ، واسم خاله سليم ، كان يدرّس مادّة الفكر المادّي في الجامعات والمعاهد العالية ، قلت له : وماذا تدرّس اليوم ياأستاذ سليم ؟ فأجاب : الفلسفة الإسلاميّة ، لأنّني إن تحدّثت اليوم عن المادّيّة الدّيالكتيكيّة تتعالى ضوضاء الطّلبة ، ويبدؤون بمغادرة قاعة المحاضرات ، إنّهم اليوم يحبّون أن يسمعوا شيئاً عن الإسلام .

ووجّه إليّ الأستاذ سليم هذه الأسئلة :

ـ ما الأديان الّتي كانت في جزيرة العرب قبل الإسلام ؟

ـ ما أعظم حدث في حياة محمد ﷺ ؟ حدّثني عن أشياء هامّة ثمّ عن حدث بارز في حياته ﷺ .

ـ وماذا عن السّيّد المسيح وأُمه مريم ؟

ـ وما الفرق بين السُّنّة والشّيعة ؟

ـ وماذا عن الهجمة الصّليبيّة الواضحة على العالم الإسلامي ؟

لقد أراد الأستاذ سليم الإجابات موضَّحة بالمصوَّرات والألوان الَّتي أعدَّها مسبقاً ، مع تسجيل مخطَّط لكلِّ إجابة يضمُّ الأفكار الرَّئيسيَّة .. ثمَّ قال لي : هذه موضوعات محاضراتي القادمة ، فلا تبخل عليَّ بشيء ، شرحاً ورسماً وتوضيحاً ..

وبعد إجاباتي عمّا سأل ، وبعد تناول العَشاء ، أصرَّ على جولة ليليَّة في باكو بسيّارته الخاصَّة ، وراح يعبِّر عن تأثُّره بما قلت ، ويظهر إعجابه بالإسلام السَّمح المحبِّ للنَّاس كافَّة ، وفي ختام الجولة اللَّيليَّة أقسم إلاَّ أن يحمل بعض الحاجيّات الَّتي كانت معي من السَّيّارة إلى غرفتي في الفندق ، تقديراً واحتراماً لعربي مسلم أفاده .

وعاد الأستاذ سليم بعد يومين ، وأمضيت معه يوماً كاملاً في ضواحي باكو ، وأهم ما زرناه في ذلك اليوم معبد النّار والمتحف المحيط به ، والنّار الأبديَّة المشتعلة من تسرُّب الغاز الطبيعي المنطلق عند سفوح جبال قريبة من باكو .

☆ ☆ ☆

ذكرت (الهيرالدتريبون : ١٩٧٩/٧/٢٨ م) :

« منذ سقوط الأندلس والإسلام يكاد يكون غير ممتزج في أوربّة ، وهو اليوم يبزغ من جديد عبر القارَّة ، فالمآذن ترتفع في أُوربّة ، وترتبط صحوة الإسلام في أُوربّة بصحوته في بلاده .. والإسلام ليس ديانة بالمعنى الضَّيِّق للكلمة ، ولكنه طريقة كاملة للحياة ، وهو يصوغ الموقف الاجتماعي ونماذج السُّلوك لمن يتّبعونه ، طعامهم وملابسهم وزوجاتهم وحياتهم الأُسريَّة وتعاملاتهم الاقتصاديَّة » .

إنَّ اعتناق الإسلام من قبل الأُوربيِّين اليوم ، بعد دراسة وقناعة ، بعيداً عن العنف ، لَدليلٌ على حواريَّته وعقلانيَّته ، وأنَّ آفاقاً جديدة تتفتّح تثبت صلابته وقوَّة مبادئه ورسوخها في الحقّ ، فهو يزدهر في الظُّروف الصَّعبة وينتشر .

وعلى الرّغم من حملة الإعلام الغربي المدروسة والمركَّزة ، مع إصراره على إبعاد الأُمَّة الإسلاميَّة من التَّاريخ ، وجعلها (العدو ـ الْمُتَوهَّم ـ القادم من الجنوب) ، خصوصاً بعد تفكُّك الاتِّحاد السُّوفييتي وانتهاء الحرب الباردة ، وقولهم : إنَّ التَّاريخ

قـد انتهى ، إنَّـه قـد توقَّف .. على الرَّغم من كلِّ هـذا ، الإسـلام ـ عالميّاً ـ الأوَّل والأقدر على كسب الأتباع باعترافهم .

« إنَّ التَّاريخ قد انتهى » مقولة قـابلـة للحوار ، خـاضعـة للنَّقـد والنَّقض ، لأنَّ الإسـلام عقيـدةً ومنهجـاً وسلـوكاً سيصنـع التَّـاريـخ في قـادمـات السِّنين ، فهـو يمتلـك قـدرة عجيبـة على تحويل خصومه إلى أنصار ، فهو يقاوم التَّيَّار المنحرف ، ويجـدِّد النُّفوس ، ويرقى بها إلى الإنسانيَّة الحقَّة .

ولقـد قيـل بحـقٍّ : إنَّ السَّـاعــة الَّتي تسبـق السَّحر أكثف ساعـات اللَّيل ظلامـاً ، فـالسَّحر والفجر نتيجتـان معـاكستـان لتلك المقدِّمة ، فعصر النَّهضة نتيجة معاكسة لفترة الرُّكود .

« واللَّيلُ إن طالَ غالَ الصُّبْحَ بالقِصَرِ » .

الفصل الثَّاني

النَّهْرُ الَّـذي يَبْحَثُ عَنْ مَجْرى

مـع أنَّ الإسـلام شيء ، والمسلمـون في واقعهم اليـوم شيء آخر ، إنَّ الإسلام دين القرن الـواحـد والعشرين ، وفي عقـوده الأُولى ، لأنَّه :

١ ـ دين الفطرة : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمونَ ﴾ ، [الرُّوم : ٣٠/٣٠] .

٢ ـ ولأنَّه دين الإيمان المبني على العقل والقناعة بعد الحوار والتَّفكُّر : ﴿ أفَلَمْ يَسيرُوا في الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُم قُلُوبٌ يَعْقلُونَ بِها .. ﴾ ، [الحج : ٤٦/٢٢] .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذينَ يَعْلَمونَ والَّذينَ لا يَعْلَمونَ إنَّما يَتَذَكَّرُ أُولو الألْبابِ ﴾ ، [الزُّمر : ٩/٣٩] ، ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْماً ﴾ ، [طه . ١١٤/٢٠] .

٣ ـ ولأنَّه الدِّين الَّذي لا يخشى التَّقدُّم العلميَّ مهما يَسْمُ العِلْم ويرتقِ : ﴿ قُلْ سِيروا في الأرْضِ فَانْظُروا كَيفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ ﴾ ، [العنكبوت : ٢٠/٢٩] .

٤ ـ ولأنَّه الدِّين الَّذي لا يضيره أن يبقى أبناء الشَّرائع الأُخرى ضمن المجتمع الإسلامي على عقيدتهم ، مع الكرامة والاعتراف بالآخر : ﴿ قُلْ أغَيْرَ اللهِ أبْغي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيءٍ ولا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عَلَيْها ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إلى رَبِّكُم مَرْجِعُكُم فَيُنَبِّئُكُم بِما كُنْتُم فيهِ تَخْتَلِفونَ ﴾ ، [الأنعام : ١٦٤/٦] ، ﴿ لا إكْراهَ في الدِّين قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكْفُر بِالطّاغوتِ ويُؤمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقى لا انفِصامَ لَها واللهُ سَميعٌ عَليمٌ ﴾ ، [البقرة : ٢٥٦/٢] .

٥ ـ ولأنَّه دين العدالة الاجتماعيَّة ، مجتمع الإيثار والرَّحمة والإنسانيَّة : ﴿ وَيُؤثِرونَ عَلى أَنْفُسِهِم وَلَو كانَ بِهِم خَصاصَةٌ ﴾ ، [الحشر : ٥٩/٩] .

٦ ـ ولأنَّه دين متجدِّد لا جمود فيه ، فحيثما تكُن مصلحة المسلمين ـ كما يقول الشَّاطبي ـ فثمَّ شرع الله : ﴿ ياأيُّها الَّذينَ آمَنوا استَجيبُوا للهِ ولِلرَّسولِ إذا دَعاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، [الأنفال : ٨/٢٤] ، ولم يَدْعُ اللهُ سبحانه وتعالى ورسولُه الكريم ﷺ المؤمنين إلاَّ لما يحييهم .

٧ ـ ولأنَّه دين الحياة المتوازنة المطمئنة ، فيها الرُّوح لا تنكر المادَّة ، والمادَّة لا تطغى على الرُّوح .

وفيها الطَّيِّب حلال ، والخبيث حرام ، مع الاعتدال والوسطيَّة .

﴿ .. يَأْمُرُهُم بِالْمَعْروفِ ويَنْهاهُم عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتُ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ ﴾ ، [الأعراف : ٧/١٥٧] ، ﴿ وَابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدّارَ الآخِرَةَ ولا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنيا

وأحْسِنْ كَما أحْسَنَ اللهُ إلَيْكَ ولا تَبْغِ الفَسادَ في الأرْضِ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدينَ ﴾ ، [القصص : ٧٧/٢٨] ، ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتي أخْرَجَ لِعِبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ للَّذينَ آمَنُوا في الْحَياةِ الدُّنيا خالِصَةً يَوْمَ القِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمونَ ﴾ ، [الأعراف : ٣٢/٧] ، ﴿ لَهُمَ البُشْرى في الْحَياةِ الدُّنيا وفي الآخِرَةِ لا تَبْديلَ لِكَلِماتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظيمُ ﴾ ، [يونس : ٦٤/١٠] .

٨ ـ ولأنّه دين القيم الَّتي تحفظ المجتمع كلّه معافى سليماً ، الطّفل فيه يترعرع في أُسرة ترفرف عليها المودّة والرّحمة :

﴿ وَمِن آياتِهِ أن خَلَقَ لَكُم مِن أنفُسِكُم أزْواجاً لِتَسْكُنوا إلَيها وجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ ﴾ ، [الرّوم : ٢١/٣٠] .

فالمرأة فيه محترمة بنتاً ، وأُختاً ، وزوجة[١] ، أمّا أُمّاً تقدّمت بها السّنون فقد كرّمها البيان القرآني بقوله :

(١) لمس ذلك الدكتور مراد هوفمان فقال في كتابه (يوميّات ألماني مسلم) عن مساواة المرأة بالرّجل : =

﴿ وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُل رَبِّ ٱرْحَمْهُما كَما رَبَّياني صَغيراً ﴾ ، [الإسراء : ٢٤/١٧] .

٩ ـ ولأنَّه الدِّين الَّذي يقدِّس الزَّمن ويحترم الحياة ، فالوقت هو الحياة :

﴿ وَالَّذينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضونَ ﴾ ، [المؤمنون : ٣/٢٣] ، ﴿ وَالَّذينَ لا يَشْهَدونَ الزُّورَ وإذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ﴾ ، [الفرقان : ٧٢/٢٥] ، ﴿ وَإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وقالوا لَنا أعْمالُنا ولَكُم أعْمالُكُم سَلامٌ عَلَيْكُم لا نَبْتَغي الجاهِلينَ ﴾ ، [القصص : ٥٥/٢٨] ، ﴿ وَلا تَقْفُ ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤولاً ﴾ ، [الإسراء : ٣٦/١٧] .

وعلَّمنا الإسلام أنَّه « من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

= المساواة في الكرامة مع اختلاف الأعباء .
والمساواة في المنزلة مع اختلاف الأدوار .
والمساواة في القيمة مع اختلاف القدرات .

١٠ ـ ولأنّه دين عالمي إنساني ، يخاطب النّاس ، كلّ النّاس على اختلاف ألسنتهم وعروقهم : ﴿ يا أيُّها النّاسُ إنَّا خَلَقْناكُم مِن ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْناكُم شُعوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفوا إنَّ أكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أتْقاكُم إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ ﴾ ، [الحجرات : ١٣/٤٩] .

وخطبة الرّسول الكريم ﷺ في حجّة الوداع قرّرت أنّ النّاس سواسية « في أيِّ إهابٍ برزوا ، وعلى أيِّ حالةٍ كانوا ، وفوق أيِّ مستوىً تربّعوا » .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ ﴾ ، [الإسراء : ٧٠/١٧] .

☆ ☆ ☆

ويبقى الإسلام قويّاً

مرَّ الإسلام والمسلمون بمواقف حاسمة ، وبفترات حرجة ، على مدى ألف وأربع مئة عام من مسيرته ، كلٌّ منها كان كافياً ليصبح الإسلام أثراً بعد عين ، ولكنَّه خرج منها معافىً قويّاً ، وباعتراف مركز رصد انتشار العقائد في (برن) في سويسرة ، الإسلام هو الأوَّل في اكتساب الأتباع ، الأوَّل انتشاراً .

ننتقي من هذه المواقف عشرة ، نعرضها موجزة جدّاً ، بتسلسلها الزَّمني .

☆ ☆ ☆

- ١ -

الهجرة ٦٢٢ م :

استهدفت قريشُ النَّبيَّ ﷺ بذاته الشَّريفة ؛ للقضاء على الرِّسالة في مهدها ، بعدما تنبَّهت لخطر الموقف ، وأن زمام

الأمور قد أُفلتت من يدها ، بعد أن تجمَّع المهاجرون في يثرب ، وأصابوا بالأنصار منعة ، وما اجتماع المهاجرين والأنصار إلاَّ لحماية الدَّعوة ، وبناء مجتمع يعترف بحرِّيَّة اختيار العقيدة .

وفي دار النَّدوة قرَّرت قريش قتل رسول الله ﷺ ، بسيوف شباب يُختارون من القبائل كافَّة ، ولن يقوم بنو عبد مناف ـ قوم رسول الله ﷺ ـ على حرب قومهم جميعاً ، فيرضون بالدِّية .

دبَّرت قريش خطَّتها ، ورسمت طريقة تنفيذها ليلاً بدقَّة ، وقدَّر رسول الله ﷺ الموقف ، فتدبَّر أمره ، وخرج بكلِّ عزَّة وطمأنينة إلى دار أبي بكر الصِّدِّيق ليكون صاحبه في هجرته ، في طريقه إلى معقل الإسلام في المدينة المنوَّرة .

وفي ١٢ ربيع الأوَّل (١٨ تموز ٦٢٢ م) وصل الرَّكب إلى قُباء ، وأُسِّس أوَّل مسجد في الإسلام(١) .

---

(١) للتَّوسُّع انظر : (الهجر حدث غيَّر مجرى التَّاريخ) للمؤلف .

وفي المدينة المنوّرة استطاع ﷺ أن يوحّد كلّ المسلمين على اختلاف قبائلهم ، فجعل منهم أُمّة واحدة ، ألّف الإسلامَ بين قلوب أفرادها ، وأوجد التّضامن بين أفراد تلك الجماعة على أساس أن الأُخوّة في الدّين ، مقدّمة على غيرها من الصّلات ، حتّى على صلة القُرْبى .

ولم يكن أمراً عارضاً أن تكون المدينة المنوّرة داراً للهجرة ، وملجأً للدّعوى ، ومقرّاً للدّولة النّاشئة .

لقد أرادت قريشٌ قتل رسول الله ﷺ للقضاء على الإسلام ، فكانت الهجرة حيث قامت دولة الإسلام على أُسس راسخة خالدة ، مع تهيئة الظّروف لبقائها ، في المجالَيْن العربي والعالمي .

وضاعت جهود قريش ، وخرج الإسلام من هذا الموقف الحاسم منتصراً عزيزاً ، وآتت الهجرة أُكُلَها يانعة طيّبة .

☆ ☆ ☆

- ٢ -

أُحُد (شوّال ٣ هـ ، كانون الثّاني ٦٢٥ م) :

سارت قريش إلى المدينة المنوّرة ، والغيظ يفتّت كبدها ، تريد ثأراً بعد هزيمتها في بدر ، فكانت (غزوة أُحُد) ، ورتّب ﷺ خطّة ضمنت النّصر ، حتّى انكشف المشركون عن معسكرهم ، وولّوا لا يلوون على شيء ، حينها فارق الرُّماة مكانهم الّذي أمرهم ﷺ أن لا يفارقوه ، ونهاهم أميرهم عبد الله بن جُبير عن مفارقة مواقعهم ، فقالوا : انهزم المشركون ، فما مقامنا هنا ؟ وانطلقوا لجمع الغنائم .

وثبت عبد الله بن جبير مكانه ، وثبت معه دون العشرة ، وقال : لا أُجاوز أمر رسول الله ﷺ ، وانتهز خالد بن الوليد خلاء الجبل من الرُّماة ، وقلّة من بقي فيه ، فكرّ بالخيل ومعه عكرمة بن أبي جهل بحركة التفاف بارعة ، فحمل ومن معه على من بقي من الرُّماة ، فقتلوهم مع أميرهم عبد الله بن جبير .

وانكشف المسلمون ، وأصاب العدوُّ منهم ، حتَّى خلص المشركون إلى رسول الله ﷺ وقُذِف بالحجارة حتَّى وقع لجانبه ، وأُصيبت رباعيَّته ، وشُجَّ في وجهه ، وكُلِمَت شفته .

وعلى الرَّغم من الموقف العسكري الَّذي جاء لصالح قريش ، كان ﷺ بارعاً في التَّوجيه المعنوي ، لقد حفظ ﷺ معنويات جنده عالية مرتفعة ، حينما قال : « لا يصيب المشركون منّا مثلها حتَّى يفتح الله علينا »[1] .

وأزمع أبو سفيان ومن معه العودة إلى المدينة ، وقالوا : أصبنا حدَّ أصحابه وأشرافهم وقادتهم ، ثمَّ نرجع قبل أن نستأصلهم ! لنكُرَّنَّ على بقيَّتهم فلنفرغنَّ منهم .

وعلم ﷺ بذلك ، فسار والمسلمون في طلب أبي سفيان ومن معه ، ليعلموا أنَّ الَّذي أصاب المسلمين في أُحُد لم يكن ليوهنهم ، ورأى أبو سفيان معبدَ بن أبي معبد الخزاعي ، فقال : ما وراءك يا معبد ؟

---

(١) البداية والنّهاية ٤٧١/٤ ، ابن خلدون ٢٧/٢ ، السّيرة النبوية ٩٤/٣ .

قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قطُّ ، يتحرَّقون عليكم تحرُّقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلَّف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أرَ مثله قطُّ .

أبو سفيان : ويحك ، ما تقول ؟

قال معبد : والله ما أرى أن ترتحل حتَّى أرى نواصي الخيل .

قال أبو سفيان : فوالله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم لنستأصل بقيَّتهم .

وعاد أبو سفيان إلى مكَّة مكتفياً بصورة نصر ناله ، لا بإمكاناته العسكريَّة ، بل بسبب مخالفة الرُّماة .

إنَّ سمعة الانتصار تكفيه لردِّ سمعته بين القبائل ، محقِّقاً هدفاً إعلاميّاً ، إنَّ النَّصر الَّذي أحرزه أبو سفيان ، أحرزه مغلوب منهزم ، أخطأ خصمه خطأً واحداً قرَّر مصير المعركة

لصالح المغلوب المنهزم ، ولولا الخطأ ما عرف النَّصر ، ولا أدرك ثأراً ، فآثر الانسحاب إلى مكّة[1] .

ولم تحقّق قريش ما أرادت ، على الرَّغم من الخطأ الفادح المرتكب ، والَّذي ساق إليها النَّصر ، فلم تستطع القضاء على المسلمين ، ولم تتمكَّن من فتح طريق تجارتها إلى الشَّام .

وبقي الإسلام قويّاً ، واجتاز الموقف الصَّعب ، وخرج منه معافىً .

☆ ☆ ☆

ـ ٣ ـ

الْخَنْدَقُ (شوّال ٥ هـ ، شباط ٦٢٧ م) :

أراد المشركون القرشيُّون متحالفين مع يهود خيبر وغطفان ـ مرتزقة العصر آنذاك ـ استئصال المسلمين ، فلو قُدّر لهم النَّجاح فيما أرادوا وحشدوا من أجله ، لتغيَّر مجرى تاريخ

(١) غزوة أُحُد في سلسلة : غزوات الرَّسول الأعظم .

جزيرة العرب ، وتاريخ العالم كلّه ، لارتباط أحداث التّاريخ العربي الإسلامي بأحداث السّاحة العالميّة بعدئذ ، ولا سيما مع الدّولتَيْن العظمتَيْن الفرس والرُّوم .

قال اليهود لزعماء المشركين في مكّة : إنَّا سنكون معكم عليه حتّى نستأصله .

فقال أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، وأحب النَّاس إلينا من أعاننا على عداوة مُحَمَّد .

سُرَّ زعماء قريش بموقف زعماء اليهود هذا ، وتحالفوا عند الكعبة المشرَّفة أن لا يخذل بعضهم بعضاً ، ويكونوا كلُّهم يداً واحدةً على مُحَمَّد ما بقي منهم رجل .

وتجهَّزت قريش وأتباعها من القبائل ، وتجهَّزت غطفان ، وتجهَّز اليهود ، ونزلت جموعهم شمالي المدينة المنوَّرة ، ونقض بنو قريظة عهدهم مع المسلمين ، فصار المسلمون في ساعة من أشدّ ساعات الحرج ، حيث زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر .

ومع كلّ ذلـك ، كان رسول الله ﷺ مستبشراً : « أُعطيتُ مفاتيح اليمن ، أُعطيتُ مفاتيح الشّام والمغرب ، أُعطيتُ مفاتيح فـارس ، هـذه فتـوح يفتحهـا الله بعـدي يـا سلمـان ، وأخبرني جبريل أنَّ أُمّتي ظاهرة عليها ، فـأبشروا » ، « وليهلكنَّ كسرى وقيصر ، وإذا هلـك قيصر فلا قيصر بعـده ، وإذا هلـك كسرى فلا كسرى بعده »[1] .

وبعـد حصـار شهر ، أرسل الله ريحـاً وجنـوداً لم يرَوْهـا في ليلة شـديـدة البرد ، فكانت صفقـة خـاسرة ، وانسحبت قريش وحلفاؤها ، بعد أن سارت تريد استئصال المسلمين .

قـال رسـول الله ﷺ : « لن تغـزوكم قريش بعـد عـامكم هذا ، الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم » .

---

(١) الخندق ، من سلسلة : غزوات الرّسول الأعظم ، ومصادر الخندق : السّيرة النّبـويّـة لابن كثير ٢١٠/٣ ، عيـون الأثر ٥٧/٢ ، ابن هشـام ١٣٠/٣ ، الطّبري ٢٣٣/٢ ، البداية والنّهاية ٩٦/٤ ، السّيرة الحلبيّة ٣٢٢/٢ ، الاكتفاء ١١٥/١ .

وبعد الخندق ، توالت الانتصارات على المستوى الدّعوي ، ومن أسلم عاد إلى قبيلته داعياً بالحجّة ، محكّماً العقل ، يتوّج ذلك كلّه (الكلمة الحكيمة الطّيّبة) ، خصوصاً وقد شعرت القبائل أنّ المبادأة أضحت بيد المسلمين ، وسينتقلون من انتصار إلى انتصار ، حتّى يضمّ الإسلام تحت جناحَيْه أرجاء الجزيرة العربيّة ، ضمّ توحيدٍ وعدالة وأُلفة .

وهكذا ضاعت آمال المشركين في أمانيهم ، وظلّ الإسلام معافىً .

☆ ☆ ☆

- ٤ -

حُروبُ الرِّدَّة (١١ هـ/٦٣١ م) :

لقد وطّدت انتصارات المسلمين في حروب الرِّدَّة كلّ ما حقّقته المرحلتان المكّيّة والمدنيّة من عمر الدّعوة ، فلولا عزيمة الصّدّيق رضي الله عنه ، وصدقه وإخلاصه لكان ما بُنِيَ في مهبّ الرّيح .

تـأمَّل المرتـدّون خيراً حينمـا تولّى أبو بكر الصّـدّيق أمـور المسلمين ، وظنُّوا أنَّ الأُمور قد انتهت ، وأنَّ زوال دولـة الإسلام النَّاشئـة في المـدينـة قـاب قوسين أو أدنى ، واطمأنُّوا لأنَّهم سوف يواجهون في حربهم شيخاً رقيقاً تجاوز السِّتِّين .

الارتداد (ثورة مضادَّة) تتعلَّق نتائجها بمصير دولة نـاشئـة وليدة ، أسَّسهـا رسول الله ﷺ على التَّقوى ﴿ إنَّ أكْرَمَكُم عِنْـدَ اللهِ أتْقاكُمْ ﴾ ، [الحجرات : ١٣/٤٩] ، وهيَّأها لتحمل رسـالـة الله سبحانه وتعالى إلى النَّاس كافَّة .

الارتداد (ثورة مضادَّة) استهدفت الإسلام عقيدة ورسالـة ونظاماً ، وبذلك استهدفت مستقبل الأُمَّة كلِّها .

وتجلَّت عظمـة الصِّـدِّيق رضي الله عنـه ـ الَّتي كانت تنهـل من معين المصطفى المختـار ﷺ ـ وظهرت في فهم ركن الزَّكاة ، فلا مساومة على ركن من أركان الدِّين ، لأنَّ الزَّكاة حقٌّ المجتمع ، للقضاء على البؤس والفقر والجوع والمرض والعوز .

وبـأحـد عشر لواءً حملهـا بصـدق وإخـلاص أبرع قـادة في

التَّاريخ[1] ، استطـاع المسلمون بقيـادة الصّـدّيق رضي الله عنـه القضـاء على الارتـداد ، وخرج الإسـلام من المحنـة الَّتي أحـاطت بـالمسلمين قويّـاً عزيـزاً ، ليبـدأ سطر صفحـة عـالميَّـة خـالـدة ، حروب تحرير وفتوح إنسانيَّة وصلت كاشغر وسانس وبواتييـه ، وحوض النَّيجر وأعماق سيبرية[2] مروراً بأسوار فيينا .

☆ ☆ ☆

ـ ٥ ـ

الفِتْنَةُ : (موقف آخر حاسم)

جـاء في البـدايـة والنهـايـة ١١٩/٨ : « ولم تزل الفتوحـات والجهاد قائماً على ساقه في أيّامـه في بلاد الرُّوم والفرنج وغيرهـا ،

(١) للتَّوسُّع : حروب الرِّدَّة ، من قيادة النَّبي ﷺ إلى إمرة أبي بكر .

(٢) سيبريـة : كانت جـزءاً من الـدَّولـة المغـوليَّـة الَّتي أسَّسهـا بـاطـوس بن جنكيزخان ، وصلها الإسلام بواسطـة الـدُّعـاة من أهل بخـارى وقـازان ، الَّذين شقُّوا طريقهم إلى تلك البلاد ، وعاشوا مع أهلها ، ولما اعتنق المغول الإسلام وتحمَّسوا له أصبحت سيبرية بلاداً إسلاميَّـة ، وكوَّن فيهـا المسلمون إمارة عاصمتها سيبرية (تحريف من صابري) .

فلَمَّا كان من أمره وأمر أمير المؤمنين[1] على ما كان ، لم يقع في تلك الأيّام فتح بالكلِّيَّة ، لا على يديه ولا على يدي علي ، وطمع في معاوية ملكُ الرُّوم بعد أن كان قد أخشاه وأذلَّه ، وقهر جنده ودحاهم ، فلما رأى ملكُ الرُّوم اشتغال معاوية بحرب علي ، تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطَمِعَ فيه ، فكتب معاوية إليه : واللهِ لئن لم تنتهِ وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحنَّ أنا وابن عمِّي عليك ، ولأُخرجنَّك من جميع بلادك ، ولأُضيِّقنَّ عليكَ الأرض بما رحُبت ، فعند ذلك خاف ملك الرُّوم وانكفَّ ، وبعث يطلب الهدنة » .

لقد كانت الفتنة بما فيها الْجَمَل وصِفِّين ، ومن ثَمَّ استشهاد الإمام علي كرَّم الله وجهه موقفاً آخر حاسماً في تاريخ أُمَّتنا .

وكما هو واضح من النَّصِّ الَّذي أورده ابن كثير في [البداية والنِّهاية ١١٩/٨] الفتنة هزيمة داخليَّة ، هزيمة وحدة الصَّف

---

(١) (أمره) أمر معاوية بن أبي سفيان ، (وأمر أمير المؤمنين) علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه .

الدَّاخلي ، أنتجت فرقة ، وضياع جهود ، أوقفت انتشار الدَّعوة الإسلاميَّة لمدَّة ليست يسيرة .

الحرب الأهليَّة هدر لقوى وطاقات لم توضع في مجالها الصَّحيح ، لقد توقَّفت الفتوح ، عندما أصبح بأس المسلمين بينهم ، وتطاول عدوُّهم عليهم ، وجاء عام ٤١ هـ (عام الجماعة) ، فحقنت دماء المسلمين ، واجتمعت الكلمة ، وبدأت الفتوح تستعيد عزيمتها عام ٤٢ هـ بفتوح عقبة بن نافع في الشَّمال الإفريقي .

والفتنة (الحرب الأهليَّة) تكرَّرت أيَّام عبد الملك[1] وحروبه مع عبد الله بن الزُّبير ، وما كاد عبد الملك ينتهي من

---

(١) عبد الملك بن مروان بن الحكم : [٢٦ ـ ٨٦ = ٦٤٦ ـ ٧٠٥ م] : من أعاظم الخلفاء ودهاتهم ، نشأ في المدينة فقيهاً واسع العلم ، متعبِّداً ناسكاً ، انتقلت إليه الخلافة سنة ٦٥ هـ فضبط أمورها وظهر بمظهر القوَّة ، فكان جبَّاراً على معانديه ، قويَّ الهيبة ، ونقلت في أيَّامه الدَّواوين من الفارسيَّة والرُّوميَّة إلى العربيَّة ، وضبطت الحروف بالنُّقط والحركات ، وهو أوَّل من صكَّ الدَّنانير في الإسلام ، وأوَّل من نقش بالعربيَّة على الدَّراهم ، ونقش خاتمه : « آمنت بالله مخلصاً » ، [الأعلام ١٦٥/٤] .

حروبه مع ابن الزُّبير حتَّى أسرع في توجيه جيشه إلى حرب الرُّوم ، وبذلك أوقف تطاولهم وأنهاه ، هذا التَّطاول الَّذي ما كان لقوَّة في دولة الرُّوم وجيشها ، لقد كان بسبب الخلافات الدَّاخليَّة بين المسلمين أنفسهم ، حتَّى أدى عبدَ الملك أتاوة للرُّوم ليأمن جانبهم مؤقَّتاً .

وبعد انتهاء حرب ابن الزُّبير ، عادت الرُّوم إلى حجمها الحقيقي ، قزماً أمام وحدة الصَّفِّ الدَّاخليِّ في دولة الإسلام ، فأوقف عبد الملك دفع الأموال إليهم ، وردَّهم على أعقابهم .

انتهت الفتنة ، وتوقَّفت الحرب الأهليَّة ، فوجَّه عبد الملك هذه القوى إلى الفتوح ، هذه الفتوح الخالدة الباقية بسبب إنسانيَّتها وحضارتها ، ولكنَّها تأخَّرت زمناً غير يسير بسبب الحرب الأهليَّة .

☆ ☆ ☆

- ٦ -

الحملاتُ الصَّليبيَّةُ (١٠٩٥ - ١٢٩١ م) :

لن نتحدَّث عن ماهيَّة الحركة الصَّليبيَّة وبواعثها الدِّينيَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة ، ويكفينا بعض المقدِّمات وبعض النَّتائج .

في ١٩ آب (أُغسطس) ١٠٧١ م كانت معركة (ملاذكرد)[1] ، المعركة الحاسمة بين السَّلاجقة بقيادة ألب أرسلان ، وبين البيزنطيِّين بقيادة رومانس الرَّابع ، وحلَّت الهزيمة بالبيزنطيِّين ، ووقع الإمبراطور رومانس الرَّابع أسيراً .

وهذا يمثِّل « نهاية دور الدَّولة البيزنطيَّة في حماية المسيحيَّة من ضغط الإسلام ، وفي حراسة الباب الشَّرقي لأُوربَّة من غزو الآسيويِّين ، وبذلك صار على الغرب الأُوربي أن يقوم بدوره في هذا المضمار بدلاً من اعتماده ، حتَّى ذلك الوقت ، على

---

(١) ملاذكرد : Malazgirt . مدينة في شمال شرقي تركيَّة على مقربة من بحيرة وان ، كانت تدعى قديماً (مانتزيكرت) .

الإمبراطـوريَّة البيزنطيَّــة ، وبعبــارة أُخرى ، فـإنَّ مـوقعـة (مـلاذكرد) تبرِّر ـ في نظر كثير من المـؤرِّخين ـ مـا حــدث سنـة ١٠٩٥ م من دعـوة للحرب الصَّليبيَّــة في الغرب الأُوربي ، على أساس أنَّ هذه الدَّعوة إنَّما جاءت ردَّ فعل للكارثة الَّتي حلَّت بالدَّولة البيزنطيَّة سنة ١٠٧١ م : ، فكانت دعوة البابا (أُوربـان الثَّـاني) في تشرين الثَّـاني (نـوفمبر) ١٠٩٥ م للحملـة الصَّليبيَّـة الأُولى خير أداة للثَّـأر لمعركـة (مـلاذكرد) ، ولقـد استطـاعت هذه الحملة تـأسيس إمـارة الرُّهـا ، وإمـارة أنطـاكيـة ، ومملكـة بيت المقـدس ، وإمــارة طرابلس ، والجــدول التَّــالي يـوضِّح السُّقوط والاسترداد :

الإمارة أو المملكة	السُّقوط	الاسترداد
إمارة الرُّها	١٠٩٨ م	١١٤٤ م
إمارة أنطاكية	١٠٩٨ م	١٢٦٨ م
مملكة بيت المقدس	١٠٩٩ م	١١٨٧ م
إمارة طرابلس	١١٠٩ م	١٢٨٩ م

ومنذ عام ١٠٩٨ م تاريخ وصول الحملة الصَّليبيَّـة الأُولى ، لم يمر عام واحد دون مجيء جموع صليبيَّـة جـديـدة ، وبعض هـذه الجموع فاقت في كثرة أعدادها ، وفي أهمِّيَّـة مـا حقَّقتـه من نجـاح الحملات الصَّليبيَّة المألوفة الَّتي فـازت بـأرقـام في التَّـاريخ ، ومع ذلك فإن معظم هذه الجموع ، أو الحملات ، لم تمنح أرقامـاً تضفي عليها قسطاً من الأهمِّيَّة في التَّاريخ[1] .

أمَّـا الحملات الثَّماني الَّتي فـازت بـأرقـام عـدديَّـة ميَّـزتهـا في التَّـاريخ ، فقـد اتَّجهت أربع نحـو بـلاد الشَّـام ، وهي : الأُولى والثَّانية والثَّالثة والسَّادسة ، واثنتان نحو مصر : وهما : الخامسـة والسَّـابعـة ، وواحـدة ضـدَّ القسطنطينيَّـة ، وهي : الرَّابعـة ، وأُخرى نزلت بشمالي إفريقية ، وهي : الثَّامنة ، ولا يعرف على وجه التَّحديـد السَّبب في تميز هـذه الحملات بـإعطـائهـا أرقـامـاً

---

(١) الحركة الصَّليبيَّة ، د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، ٨٨/١ ، وانظر :
- الجبهة الإسلاميَّة في عصر الحروب الصَّليبيَّة ، د . حامد غنيم أبو سعيد ، دار الثَّقافة ، القاهرة .
- ماهيَّة الحروب الصَّليبيَّة ، د . قاسم عبده قاسم ، عالم المعرفة العـدد ١٤٩ أيار (مايو) ١٩٩٠ م .

عدديَّة دون غيرها من الحملات ، وإن كان يبدو أن السِّرَّ في هذا التَّمييز إنَّما يرجع إلى ما حصلت عليه من شهرة بسبب ما حقَّقته من نجاح في الأراضي المقدَّسة ، مثل الحملة الأُولى ، أو ما كان لها من اتِّجاه خاص جديد غير مألوف في غيرها من الحملات الصَّليبيَّة ، مثل الرَّابعة والخامسة ، أو لخروجها تحت زعامة كبار ملوك الغرب ، مثل الحملات الثَّالثة والسَّادسة والسَّابعة والثَّامنة .

وعلى الرَّغم ممَّا كان يجري في قلب العالم الإسلامي يومئذ من انقسامات وخلافات سببها الخلاف بين أُمراء السَّلاجقة بعضهم مع بعض ، ورغبة الخلافة العبَّاسيَّة في استعادة سلطتها الزَّمنيَّة ، هيَّأ الله من يبدأ بنشاط وجِدٍّ حروبَ التَّحرير ، إنَّه أتابك الموصل زنكي(1) الَّذي استعاد إمارة الرُّها ، وجاء من بعده ابنه

---

(1) الأتابك عماد الدِّين زنكي بن قسيم الدَّولة الحاجب آق سنقر : [ت ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م] ، تصدَّى للصَّليبيِّين وأجلاهم عن حلب وحماة وأخذ منهم حصن الأثارب ، وتوغَّل في ديار بكر ، واستعاد الرُّها ، وبينما كان يحاصر قلعة جعبر قتل غيلة ودُفِن بصفِّين ، و (أتابك) لقب تركي يعني : أب أو مربِّي الأُمراء .

نور الدِّين زنكي ، ومن بعده النّاصر صلاح الدِّين الأيُّوبي ، فكانت (حطِّين) السَّبت ٤ تموز (يوليو) ١١٨٧ م ، ومن ثم تحرير القدس الشريف يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ ، الموافق ١٢ تشرين الأوَّل (أُكتوبر) ١١٨٧ م .

ويعترف المؤرِّخون الأُوربيُّون بكرم الأخلاق والشَّهامة والتَّسامح الَّتي اتَّسم بها المسلمون خلال قتالهم للصَّليبيِّين ، والَّتي لم يعرفها الغرب في يوم من الأيّام .

ثمَّ قامت دولة المماليك في مصر عام ١٢٥٠ م ، فبثَّت في المسلمين روحاً جديدة ، وهيَّأت لهم طاقة جديدة ، ولم يكد يمضِ على قيام دولتهم سوى نيف وأربعون سنة ، إلا وبلاد الشَّام كافَّة محرَّرة من بقايا الصَّليبيِّين ، على يد قُطُز وبيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل بن قلاوون الَّذي أتمَّ التَّحرير بفتح (عثليث)[1] في ١٤ آب (أغسطس) ١٢٩١ م ، وبذلك عادت البلاد كلُّها إلى أبنائها ، ودالت دولة الصَّليبيِّين بالشَّام ، الَّذين ازدادت معرفتهم بالشَّرق وحضارته وعلومه ، وفروسيَّته

(١) عثليث أو عتليت : بلدة جنوبي حيفا ، بينها وبين قيسارية .

وإنسانيَّته ، فكان هذا قناة رافدة لمعرفة الغرب بحضارتنا الَّتي لمسها عن قرب في الأندلس ، في قرطبة (جوهرة العالم) ، فكان عصر النَّهضة في الغرب .

- ٧ -

هولاكو
وسقوط بغداد

[٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م]

بدأت ميول المغول[١] نحو المسيحيَّة في مذهبها النَّسطوري[٢] زمن خاقانهم كيورك ، وهم الَّذين ظلُّوا وثنيِّين إلى ما بعد

(١) يظهر أنَّ الشُّعوب الَّتي انحدرت من أصل مغولي وتتحدَّث بالمغوليَّة كانت تسمِّي نفسها دائماً باسم (التَّتر) ، ولكن قد حلَّ هذا الاسم بعد عهد جنكيزخان في منغولية وآسية الوسطى اسم المعول (المُغُل) ، وهو الاسم الَّذي استعمله رسميّاً جنكيزخان .

(٢) نِسْطور Nestorius [ت ٤٥١ م] ولد في قيصرية سوريَّة ، ووصل إلى منصب بطريركيَّة القسطنطينيَّة سنة ٤٢٨ م ، أنكر على مريم لقب (أم الله) ، فحرمه مجمع إفسس سنة ٤٣١ م ، أتباعه هم النَّساطرة .

منتصف القرن الثّالث عشر الميلادي ، ومن هذا الميل جاءت فكرة تطويق الإسلام والمسلمين من الشّرق والغرب ، فبدأت الاتّصالات بين المغول وبين رومة قبيل منتصف القرن الثّالث عشر ، وأرسل البابا أنوسنت الرّابع مبعوثاً من الفرانسيسكان اسمه جنادي بلانو كاربينس John de Plano Carpinis إلى خان المغول في (قراقورم)[1] لدعوته إلى المسيحيّة ، ولكن الخاقان اشترط لإتمام تلك الخطوة دخول البابويّة وجميع ملوك وأمراء الغرب الأوربي تحت سيادة المغول .

ولم تكن تلك السّفارة هي الوحيدة من نوعها الّتي أرسلها البابا أنوسنت الرّابع إلى المغول ، بل أرسل سفارة ثانية إلى (بيجوا) زعيم مغول القوقاز .

ولم تلبث تلك الاتّصالات الّتي بدأت بين المغول والبابويّة ، في الوقت الّذي كان لويس التّاسع يعدُّ العُدَّة لحملته الصّليبيّة

(١) قراقورم : عاصمة المغول ، وموقعها في أراضي منغولية حالياً ، شمال شرقي الصّين ، وهي غير المنطقة الجبليّة العالية المعروفة حاليّاً باسم (قره قورم) شمالي كشمير بين باكستان والصّين .

ضـدّ المسلمين ، أن أدّت إلى نـوع من المفـاوضـات بين المغـول والصّليبيّين بقصـد تطويـق المسلمين في الشّرق الأدنى ، ذلـك أنّ لويس التّاسع لم يكـد يصل إلى قبرس في طريقـه إلى دميـاط ، حتّى وفـدت على نيقـوسيـا في كانـون الأوّل (ديسمبر) سنـة ١٢٤٨ م سفـارة تـألّفت من اثنين من نسـاطرة المـوصـل ـ اسمهما داود ومرقص ـ قالا إنّهما موفدان من قبل جغطاي خـان نـائب الخـاقـان الأعظم في القـوقـاز وفـارس ، وكان الغرض من تلـك السّفـارة عقـد تحـالف عسكري بين الصّليبيّين والمغـول ضـدّ الأيّوبيّين في الشّام من ناحيـة والخلافـة العبّـاسيّة في بغـداد من ناحية أخرى .

وردّ لويس على المغول بإرسال سفارة من ثلاثة أعضاء من الرّهبـان الـدّومينكان إلى المغـول ، فغـادرت السّفـارة قبرس في كانون الثّاني (يناير) ١٢٤٩ م محمّلة بالهدايـا من الملـك الفرنسي ـ لـويس التّـاسـع ـ وقصـدت جغطـاي خـان في أذربيجـان ، وسلكت تلك السّفارة طريق أنطاكية والموصل ، على أنّـه يبـدو أن تلـك السّفـارة لم تحقّـق نتيجـة حـاسمـة سريعـة في مـوضـوع

التَّحالف ، لأنَّ جغطاي خان أرسل مبعوثَيْ لويس إلى قراقورم ، مقر خان المغول العظيم في جوف آسية ، في الوقت الَّذي كان الخاقان كيوك قد توفي في أوائل نيسان (إبريل) سنة ١٢٤٨ م ، ولم تثمر هذه السَّفارة ، الأمر الَّذي جعل لويس التَّاسع يوجِّه نظره إلى كتلة أُخرى من المغول ، هم مغول وسط آسية .

وكان ذلك سنة ١٢٥٣ م ، عندما أرسل لويس التَّاسع سفارة إلى سرتاق بن باطو - وكان مسيحيّاً - لطلب التَّحالف ضدَّ المسلمين ، وكانت السَّفارة برئاسة أحد الرُّهبان الفرانسيسكان واسمه روبروك ، ووصل روبروك إلى سرتاق ، وعندئذٍ أخبره الأخير أنَّه لا يستطيع أن يقطع في الموضوع برأي حاسم دون إذن من والده باطوخان ، وهكذا يمَّمت سفارة لويس وجهها شطر باطوخان الَّذي حوَّل السَّفارة بدوره إلى منكو ، خاقان المغول العظيم ، ويبدو أنَّ ردَّ منكوخان على رسالة لويس التَّاسع جاء غير مقبول ، إذ طلب خاقان المغول من ملك فرنسة أن يعلن تبعيَّته له .

وأخبر روبروك برسالة أرسلها إلى لويس الّذي عاد إلى فرنسة أن المغول يتأهّبون لغزو العراق ، والقضاء على الخلافة العبّاسيّة ، ولهذا السّبب حرص الصّليبيّون على دوام الاتّصال بالمغول[1] .

وأعلن منكوخان رسميّاً أنّه كلّف أخاه هولاكو بالاستيلاء على العراق وتحطيم الخلافة العبّاسيّة .

وفعلاً .. أحاط المغول (التّتار) ببغداد ، دار الخلافة العبّاسيّة ، وأقنع الوزيرُ الخائن ابن العلقمي الخليفةَ المستعصم بالله المثول بين يدي هولاكو ليقنعه بالمصالحة ، على أن يكون نصف خراج العراق لهم ، ونصفه الآخر للخليفة ، فخرج الخليفة في سبع مئة راكب من القضاة والفقهاء ورؤوس الأُمراء والأعيان ، فلمّا اقتربوا من منزل هولاكو ، حُجِبَ القادِمون مع الخليفة عنه ، إلاّ سبعة عشر نفساً ، فسار الخليفة بهؤلاء ، وأُنْزِلَ الباقون عن خيولهم ، فنهبت ، وقتلوا عن آخرهم .

---

(١) الحركة الصّليبيّة ، د . سعيد عبد الفتّاح عاشور ، ١٠٩٨/٢ ـ ١١٠٢ .

وأُحضر الخليفة بين يدي هولاكو ، فسأله عن أشياء كثيرة ، ثمَّ عاد إلى بغداد وفي صحبته خوجه نصير الدِّين الطُّوسي ، والوزير ابن العلقمي وغيرهما ، والخليفة كأنه أسير بيد أتباع هولاكو ، فأحضر المستعصمُ بالله من دار الخلافة أشياء كثيرة ، من الذَّهب والْحُليِّ والمجوهرات ، والأشياء النَّفيسة .. وأشار الطُّوسي وابن العلقمي على هولاكو أن لا يصالح الخليفة ، وحسَّنا له قتل الخليفة ، فأمر بقتله ، فقُتِل[1] .

ودخل هولاكو بغداد مع جنده التَّتار ، فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرِّجال والنِّساء والولدان والشُّيوخ والكهول والشُّبَّان ، واختبأ كثير من النَّاس في الآبار والأقنية الوسخة ، وكمنوا كذلك أيّاماً لا يجرؤون على الظُّهور .

وكان الجماعة من النَّاس يجتمعون إلى الخانات ، ويغلقون عليهم الأبواب ، فيفتحها التَّتار إمَّا بالكسر وإمَّا بالنَّار ، ثمَّ يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة ، فيقتلوهم بالأسطحة ، حتَّى تجري الميازيب من الدِّماء في الأزقَّة ،

(١) البداية والنِّهاية ١٣/٢٠٠ .

وكذلك في المساجد والجوامع والرُّبط ، واستمرَّ القتل أربعين يوماً[1] .

وانقضت دولة بني العبّاس .

وبغداد خراب خاوية على عروشها ، القتلى في الطُّرقات أكداساً أكداساً ، قد سقط عليهم المطر فتغيَّرت صورهم ، وأنتنت من جيفهم البلد ، فتغيَّر الهواء ، وانتشر الوباء الشَّديد ، حتَّى تعدَّى المنطقة ، وسرى في الهواء إلى بلاد الشَّام .

ولَمَّا نوديَ ببغداد بالأمان ، خرج من تحت الأرض من كان بالأقنية والمقابر كأنَّهم الموتى ، وقد أنكر بعضهم بعضاً ، فلا يعرف الوالد ولده ، ولا الأخ أخاه ، وحصد الوباء الكثير منهم ، وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى .

ويمثل عام ٦٥٦هـ = ١٢٥٨ م زوال الخلافة العباسية ، التي عاش في كنفها العالم الإسلامي زهاء خمسة قرون .

---

(١) قدر عدد القتلى بثمان مئة ألف ، وقيل ألف ألف (مليون) وثمان مئة ألف ، وقيل القتلى ألفي ألف نفس [البداية والنهاية ٢٠٠/٢٣] .

ولقد واصل المغول زحفهم إلى بلاد الشام ، فخرج الملك المظفَّر قُطُز بجيشه المملوكي من مصر لملاقاتهم في عين جالوت[1] ، وتحطيم آمالهم في الدُّخول إلى مصر .

وكان اللِّقاء في عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨ هـ ، وهَزَم قُطُزٌ بندائه الصَّادق : « واإسلاماه » جيشَ المغول الَّذي كان بإمرة كتبغا نوين .

توفِّي هولاكو سنة ١٢٦٥ م ، فورثه ابنه أباقة الَّذي دام حكمه حتَّى سنة ١٢٨٢ م ، ليخلفه ابنه أرغون حتَّى سنة ١٢٩٢ م ، وفي عهده عُومِل النَّساطرة معاملة حسنة في شمال غربي إيران والعراق ، وبنى أُسقفهم كنيسة (مراغة) ، فهولاكو وأباقة وأرغون كانوا وثنيِّين مع بعض الميل إلى النّسطوريَّة ، وبعد فترة وجيزة بدأ حكم غازان : ١٢٩٥ ـ ١٣٠٤ م ـ وهو من أحفاد هولاكو ـ ويرافقه عهد ذهبي استمرَّ في عهد خليفته أُولجايتو : ١٣٠٤ ـ ١٣١٦ م .

واعتنق غازان الإسلام .

---

(١) عين جالوت : في فلسطين ، في سهل مرج عامر قرب مدينة بيسان .

- ٨ -

مَصْرَعُ غَرْناطَة

[٢ ربيع الأوّل ٨٩٧ هـ = ٢ كانون الثّاني ١٤٩٢ م]

إنَّ دفاع أهل غَرْناطة عن مدينتهم ، يُعَدُّ من أروع ما عُرِف في تاريخ المدن المحاصرة ، بما سجّلوا من ضروب رائعة من الإقدام والبسالة ، والرُّوح المعنويّة العالية .

حاصر فرديناند وإيزابيلا غَرْناطة سبعة أشهر ، واشتدَّ الجوع والحرمان والمرض ، فاستسلمت المدينة بشروط بلغت سبعة وستّين بنداً ، أهمُّها : « تأمين الصَّغير والكبير في النَّفس والأهل والمال ، وإبقاء النَّاس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، وإقامة شريعتهم على ما كانت ، ولا يُحْكَم على أحدٍ منهم إلاَّ بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت ، والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النَّصارى دار مسلم ، ولا يغصبوا أحداً .. » .

ولكن الشُّروط نقضت جميعها بحقد ولؤم ، واستولى الإسبان على غَرْناطة ، آخر الحواضر الإسلاميَّة في الأندلس ، وخفق علم الإسبان ظافراً فوق صرح المسلمين المغلوبين ، وقال النَّاس : انتهت بذلك دولة الإسلام في الأندلس ، وطويت تلك الصَّفحة المجيدة من تاريخ الإسلام ، وقضي على الحضارة الأندلسيَّة الباهرة ، بما فيها من آداب وعلوم وفنون .. وكلُّ ذلك التُّراث الشَّامخ في طريقه إلى الفناء والنِّسيان .

وأشرف أبو عبد الله الصَّغير على غَرْناطة فأجهش بالبكاء على هاتيك الرُّبوع العزيزة ، الَّتي شهدت مواطن عزَّة الإسلام وسلطانه وحضارته السَّامقة ، فصاحت به أُمُّه عائشة الحرَّة : « أجل ، فلتبكِ كالنِّساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرِّجال » ، وتعرف إسبانية تلك الأكمة الَّتي كانت مسرحاً لذلك المنظر باسم مؤثِّر : « زفرة العربي الأخيرة » .

وعلى الرَّغم من محاكم التَّفتيش الَّتي تشكَّلت بمرسوم بابوي في تشرين الثَّاني ١٤٧٨ م ، والَّتي هي وصمة عار في جبين العصور الوسطى في أُوربة ، والَّتي هدفت إلى تنصير المسلمين في الأندلس

بـأشـدِّ وسـائـل العنف ، فـإن لـلأنــدلس اليـوم ، وبعــد مضي خمس مئـة عـام ، حكم ذاتي في دائرة الـدَّولـة الإسبـانيَّــة ، لهـا حكومـة محلِّيَّـة تـدير شؤونهـا ، وعَلَمٌ ونشيـد قـومي ، وشبـاب أنـدلسي مسلم يقـوم بـالـدَّعـوة لنشر الإسـلام ، الـدِّين العــالمي الإنسـاني ، الَّـذي لا ينكر الـديـانـات السَّـابقـة ، ولا الأنبيــاء السَّـابقين ، تُوِّج نشـاطهم بـالاعتراف بـالـدِّين الإسلامي ديـانـة رسميَّــة إلى جــانب المسيحيَّــة واليهـوديَّــة ، وذلــك في صيف سنة ١٩٨٩ م .

رئيس الجماعة الإسلاميَّة أُستـاذ جـامعي اسمـه عبـد الرَّحمن مدينا ، أقـام في إشبيليـة حفل عـام ١٩٨٣ م ، موضوعـه : شعر الملـك الإشبيلي المعتمـد بن عبَّـاد ، افتتحـه بـآيـات من القرآن الكريم ، ودوَّى المكان بـالتَّصفيـق ، وهـذا يـدلُّ على تعـاطف الجمهــور ، وفيهم كثيرون من المسيحيِّين مــع المسلمين الجــدد ، أحفـاد طـارق ومـوسى وعبـد الرَّحمن الـدَّاخـل وعبـد الرَّحمن النَّاصر(١).

(١) الشَّرق الأوسط : ٤١٩٦ ، الجمعة ٢٥/٥/١٩٩٠ م .

وقدَّم عبد الرَّحمن مدينا شعر ابن عبَّاد بقوله : أُقدِّمُ لكم شعراً رقيقاً لملك عظيم من ملوك إشبيلية ، الَّتي عرفت في عصره الحضارة والازدهار والتَّفتُّح والتَّسامح الدِّيني ، ولكنِّي متأسِّف لتقديم هذه القصائد بالإسبانيَّة إذ كان المفروض أن تقدَّم باللُّغة العربيَّة ، لغة آبائكم وأجدادكم ، فكان تقديماً مؤثِّراً قوبل بالاستحسان والتَّصفيق .

وأدَّى المسلمون صلاة العصر ، الَّتي أُقيمت وسط حشود الحاضرين ، وقد احترموا شعور هؤلاء المسلمين بالصَّمت والهدوء .

وبعد ذلك أُلقيت كلمات حول تاريخ الحضارة الأندلسيَّة ، وختم الحفل بالنَّشيد القومي الأندلسي .

فعلى الرَّغم من وحشيَّة محاكم التَّفتيش وسجِّلاَّتها الَّتي تفيض بألوان القتل الجماعي والتَّشريد المحزن ، وتزخر في الوقت ذاته بالإباء والبسالة والصَّبر والْجَلَد ، تخلَّق بها شعب من أنبل الشُّعوب ، فعلى الرَّغم من عسف وروع ورهبة هذه المحاكم

وبطشها ، بقيت بقيَّة قليلة في جنوبي مملكة غَرْناطة ، لها مسجدها الصَّغير حتَّى عام ١٧٦٩ م ، تحافظ ما استطاعت في قرارة نفوسها على تراثها الإسلامي ، وهي اليوم تعود علناً ، مع تأسيس جامعة تعلِّم العربيَّة والإسلام ، وتفخر بأصلها ، وتعتزّ بشجرة نسبها المتَّصلة بالعرب المسلمين فاتحي الأندلس وباني مجدها الحضاري .

☆ ☆ ☆

ـ ٩ ـ

وادي المخازن

معركة الملوك الثلاثة ، معركة القصر الكبير

[الاثنين ٢٠ جمادى الثَّانية ٩٨٦ هـ ، ٤ آب ١٥٧٨ م]

سيَّرت أُوربَّة برعاية الفاتيكان جيشاً ضمَّ البرتغالي والإسباني والألماني والإيطالي .. بقيادة ملك البرتغال الشَّاب (دون سبستيان)[١] ، ملك أعظم إمبراطوريَّة على وجه الأرض

(١) سبق دلك مفاوضات جادَّة بين البرتغال والحبشة ، ووصلت رُسُل

بلا منازع آنذاك ، ونزل الأرض المغربيّة الّتي كان يحكمها الأشراف السّعديّون ، بزعامة أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله ، وأخيه أبي العبّاس أحمد المنصور الذّهبي .

(وادي المخازن) معركة بقاء الإسلام في الشّمال الإفريقي أو زواله .

لقد أراد سبستيان بحقد وتعصّب إعلاء شأنه بين ملوك أوربّة ، فظهر يحمل في يمناه كتابه المقدّس ، ويحمل في يسراه التّاج والصّولجان ، ليتوّج نفسه إمبراطوراً على المغرب وإفريقية ، إنّه حلم امتلاك الدّنيا بعد الكشوف الجغرافيّة ، واحتلال كل أراضي الإسلام ، والقضاء عليه بالقضاء على أبنائه أينما وجدوا .

معركة دامت أربع ساعات وثلث السّاعة ، مئتان وستّون دقيقة فقط قرّرت مصير المغرب وإفريقية والإسلام في كلّ أرجاء القارة ، بل وفي المشرق أيضاً .

= البرتغال إلى الحبشة طالبة الجنود والمؤن لمعاونة البرتغاليّين في كسر شوكة السّلطان في القاهرة - قانصوه الغوري - وتحطيم مدينة مكّة ، ومن الخطط تحويل مجرى النّيل عن مجراه كي تحرم مصر من خصوبة أرضها .

لقد كانت آلام المسلمين من سقوط غَرْناطة وضياع الأندلس جراحاً لم تندمل ، ولم تُنسَ بعد ، ووحشيَّة محاكم التَّفتيش وصور جرائمها الَّتي ارتكبت ما تزال ماثلة في الأذهان ، والمشاركة الشَّعبيَّة القويَّة الفعَّالة ، مع الخطَّة المحكمة المرسومة بدقَّة ، مع القدوة والأُسوة المثاليَّة .. كانت أهم عوامل النَّصر الحاسم ، حتَّى شُبِّهت معركة وادي المخازن بمعركة بدر الكبرى ، وذلك دليل أهمِّيَّتها ، وما نتج عنها من نتائج ، حتَّى بدأ التَّفكير والتَّخطيط على مستوى أُوربّة بترك سياسة الحديد والنَّار ، وبدء (حرب الكلمة) ، الغزو الفكري الثَّقافي ، بعد إخفاق الغزو العسكري في المشرق العربي وفي مغربه .

خرج المغرب المسلم منتصراً ، وبعزيمة جديدة ، وخرجت البرتغال بهزيمة قاسمة .

وممَّا يذكر أنَّ السُّلطان المغربي عبد الملك المعتصم بالله ، على الرَّغم من خروجه بنفسه ليردَّ الخطر ، كان يدافع سكرات الموت ، وحينما أُطلقت عشرات الطَّلقات النَّاريَّة من الطَّرفَيْن كليهما ، إيذاناً ببدء المعركة ، عاد إلى محفَّته ، وما هي إلاَّ دقائق

حتَّى لفظ أنفاسه الأخيرة ، وأطبق أجفانه وهو موقن بالنَّصر الَّذي وعد الله به عباده الصَّادقين المجاهدين ، وأمر هذا الرَّجل عجيب في الحزم والشَّجاعة ، لقد مات وهو واضع سبَّابته على فمه مشيراً أن يكتموا الأمر حتَّى يتمَّ النَّصر ، ولا يضطربوا ، وهذا ما كان ، فلم يطَّلع على وفاته إلاَّ حاجبه رضوان ، وأخوه أحمد المنصور ، وصار حاجبه يقول للجند : السُّلطان يأمر فلاناً أن يذهب إلى موضع كذا ، وفلاناً أن يلزم الرَّاية ، وفلاناً يتقدَّم ، وفلاناً يتأخَّر[1] .

أمر عجيب ، وسر عظيم ، فقد هلك في (وادي المخازن) ثلاثة ملوك : عبد الملك المعتصم بالله ، وسبستيان ، ومحمد المتوكِّل على الله (المسلوخ) الَّذي قاتل مع سبستيان ضدَّ عمِّه عبد الملك المعتصم بالله .

وكانت المفاجأة أنَّ ملكاً ميتاً غلب ملك البرتغال الشَّاب ، المتوقِّد حماسة في سويعات ، حتَّى ظنَّ البرتغاليُّون ومن معهم من الجند الأُوربيِّين أنَّ ذلك الأمر كان من فعل السِّحر .

وظلَّ الإسلام معافىً قويّاً .

(١) الاستقصا ٥/٨٠ .

- ١٠ -

الاستدمار
(الاستعمار اصطلاحاً)

تنافست الدُّول الأُوربيَّة في استعمار العالم الإسلامي ، فاحتلَّت بريطانية : ماليزية وشبه القارَّة الهنديَّة - حيث الدَّولة المغوليَّة الإسلاميَّة - وسواحل الخليج العربي ، والجنوب العربي ، ومصر والسُّودان ونينجرية ، والعراق وشرقي الأُردن وفلسطين ..

واستعمرت فرنسة : مالي وتشاد والنِّيجر والسَّنغال ومدغشقر وموريتانية والمغرب والجزائر وتونس وجيبوتي وسورية ولبنان ..

واستعمرت إيطالية : ليبيا وجزءاً من الصُّومال ..

واستعمرت روسية : سيبرية وتركستان الغربيَّة وحوض الفولغا وشبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز ..

واستعمرت إسبانية : الرِّيف المراكشي ، والصَّحراء المغربيَّة وإقليم مورو في الفلبِّين ..

واستعمرت هولندة : إندونيسية ..

وعلى الرَّغم مِمَّا رافق هذا (الاستدمار) من تبشير أنفق مليارات الدّولارات لمحاربة الإسلام ، ومحو اللُّغة العربيَّة ، عادت الأصالة إلى ربوع البلاد بعد الاستقلال ، فالإسلام دين الشَّعب ، واللُّغة العربيَّة لغة مقدَّسة ، إنَّها لغة العبادة ، لقد عقد مؤتمر اللُّغة العربيَّة العالمي في كراتشي بتاريخ ١٤٠٨/٧/٢٩ هـ الموافق ١٩٨٨/٣/١٧ م تحت شعار : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُم تَعْقِلونَ ﴾ ، [يوسُف : ٢/١٢] ، شارك فيه ممثِّلون عن تسع عشرة دولة ، وعدد من العلماء المهتمِّين باللُّغة العربيَّة ، وتضمَّنت أعماله خمسة محاور هي :

١ ـ دور اللُّغة العربيَّة بوصفها أداة ربط بين الدُّول الإسلاميَّة .

٢ ـ التَّنسيق والتَّعاون في تعليم اللُّغة العربيَّة بالدُّول الإسلاميَّة .

٣ ـ إسهام غير العرب في نشر اللُّغة العربيَّة .
٤ ـ وسائل وتقنيات مختلفة في تعليم اللُّغة العربيَّة .
٥ ـ دور القرآن الكريم في نشر اللُّغة العربيَّة بين المسلمين[١] .

المسلمون واقع موجود فعلاً ، ولهم وزنهم لو أحسن التَّعاون ، قد يضعفون ، ولكنهم لن ينتهوا ، لأنَّ إسلامهم محفوظ مصون ، والوعي والانبعاث جلي من المحيط الهادي وحتَّى شواطئ المحيط الأطلسي ، ومن إفريقية الخضراء جنوبي خط الاستواء إلى سيبرية .

وبدأ العملاق المقيَّد يتململ لينطلق بوعي وبلا عنف من قيده ، عارفاً ذاته ، مدركاً سِرَّ عزَّته وبقائه ، ومؤهلاته لقيادة العالم نحو إنسانيَّته الحقَّة ، وطمأنينته الرُّوحيَّة والاجتماعيَّة .

هذا هو قدر أُمَّة الإسلام ومهمَّتها ، لتكون شاهدة على النَّاس ، وليكون الرَّسول عليهم شهيداً .

---

(١) حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة : ١٩٢/١ ، د . جميل عبد الله محمد المصري ، دار أم القرى ، ط ١٤٠٩/٢ هـ = ١٩٨٩ م .

خاتِمَةٌ

القرن الحادي والعشرون قرن الإسلام

أثبت واقع المدنيَّة الغربيَّة أنَّ التَّقدُّم العلميَّ وحده لا يوجِد الإنسان السَّعيد ، فالعلم إن لم يرافقه تربيَّة وقيم روحيَّة يُوجد الإنسانَ القلق الخاوي .. وها هي السُّويد أكثر البلاد تقدُّماً علميّاً أكثرها تناولاً للمهدِّئات ونحو ذلك ، وأكثرها حوادث انتحار ، وليس من المنطق خَلْقَ هذا المناخ ، فالبشريَّة خُلِقَت لتسعد وتهنأ ، وتعيش في طمأنينة ، وليس من حقِّ أحد في الدُّنيا أن يفسد هذه الحياة الَّتي لن يُكرِّرها صاحبها ثانية على هذه الأرض .

والعمر أقصر من أن يعيشه الإنسان معذَّباً قلقاً .

ولا تحييد للقيم الأخلاقيَّة في المجتمع المتوازن ، ولا عبادة لوسائل الإنتاج .

وهذا التَّوازن فيه سلامة المجتمع وطمأنينته ، يحقِّقه الإسلام الجوهر والمضمون ، ومِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ هناك عوائق في وجه النَّهر المتدفِّق ، والَّذي لا بُدَّ أن يبلغ المجرى الَّذي جفَّ ليملؤه ، ومن هذه العوائق :

١ ـ الخلافات المذهبيَّة بين المسلمين أنفسهم ، سلفي وصوفي ، سُنِّي وشيعي ، ولو اجتمع الخلفاء الرَّاشدون ، ولو اجتمع الأئمَّة الفقهاء أيضاً ، لبَنَوْا إسلاماً واحداً ، هو الَّذي أسَّسه رسول الله ﷺ ، وساروا هم على هَدْيه وتبليغه النَّاسَ كافَّة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم وأَتْمَمْتُ عَلَيكُم نِعْمَتِي ورَضيتُ لَكُمُ الإسلامَ دِيناً ﴾ ، [المائدة : ٥/٣] .

جاء في (قواعد التَّحديث من فنون مصطلح الحديث)[1] : بحث : بيان معرفة الحقِّ بالدَّليل :

---

(١) للعلأمة الشَّيخ محمد جمال الدِّين القاسمي ، طبع : دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، ط١ ، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م ، ص ٢٥٥ وما بعدها .

ـ « الحقُّ يتَّضح بالأدلّة » .

ـ وقال الإمـام مفتي مكّـة الشّيخ محمـد عبـد العظيم بن ملا فروخ في رسالته : (القول السَّـديـد في بعض مسـائل الاجتهـاد والتَّقليـد) ، في الفصـل الأوَّل : « اعلم أنّـه لم يكلِّف الله تعـالى أحـداً من عبـاده أن يكـون حنفيّـاً أو مـالكيّـاً أو شـافعيّـاً أو حنبليّـاً ، بل أوجب عليهم الإيمـان بمـا بُعِثَ بـه محمـدٌ ﷺ ، والعمـل بشريعتـه ، غير أنَّ العمـل بهـا متـوقِّف على الـوقـوف عليها ، والوقوفُ عليها له طُرُق ، فما كان منهـا ممّـا يشترك فيـه العـامَّـة وأهـل النَّظر ، كالعلم بفريضـة الصَّلاة والـزَّكاة والحج والصَّوم والوضوء إجمـالاً ، وكالعلم بحرمـة الـزِّنـا والخمر واللِّـواطـة وقتل النَّفس ، ونحو ذلك ممَّا علم من الدِّين بـالضَّرورة ، فـذلـك لا يُتَوقَّفُ فيه على اتِّباع مجتهـد ، ومـذهب معيَّن ، بل كلٌّ مسلم عليـه اعتقـاد ذلـك ، يجب عليــه ، فمن كان في العصر الأوَّل فـلا يخفى وضـوح ذلـك في حقّــه ، ومن كان في الأعصــار المتأخِّرة ، فلوصول ذلـك إلى عملـه ضرورة من الإجمـاع والتَّواتر والآيات والسُّنن المستفيضـة المصرَّحـة بـذلـك في حقّ من وصلت

إليه ، وأما ما لا يُتَوصَّلُ إليه إلاَّ بضرب من النَّظر والاستدلال ، فمن كان قادراً عليه بتوفُّر آلته ، وجب عليه فعلُه ، كالأئمَّة المجتهدين ، ومن لم يكن له قدرة عليه وجب عليه اتِّباع من أرشده ، إلى ما كُلِّفَ به من هو من أهل النَّظر والاجتهاد والعدالة ، وسقط عن العاجز تكليفه في البحث والنَّظر لعجزه ، لقوله تعالى : ﴿ لا يُكَلِّف اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها ﴾ ، [البقرة : ٢/٢٨٦] ، وقوله تعالى : ﴿ فَاسْألوا أهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُم لا تَعْلَمونَ ﴾ ، [النّحل : ١٦/٤٣] ، وهي الأصل في اعتماد التَّقليد ، كما أشار إليه المحقِّق الكمال بن الهمَّام في التَّحرير » .

ـ « إنَّ الحقَّ لا يُعْرَفُ بالرِّجال ، اعرِف الحقَّ تعرف أهله » .

ـ قال الإمام أبو حنيفة : « هذا رأيي ، فمن جاء بخير منه قبلته » .

ـ « الحقُّ يتَّضح بالأدلَّة ، والشُّهور تشتهر بالأهِلَّة » .

ـ « لا يصحُّ لامرئٍ إلاّ موافقة الحقِّ ، ولا يُلزم النَّاس

طاعة أحد لأجل أنَّه عالم أو إمام مذهب ، وإنَّما يلزم النَّاسَ قبولُ الحقِّ ممَّن جاء به على الإطلاق ونبذُ الباطل ممَّن جاء به بالاتِّفاق » .

﴿ إنَّ الظَّنَّ لا يُغني مِنَ الْحَقِّ شَيئاً ﴾ ، [النَّجم : ٢٨/٥٣] .

﴿ فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إلاَّ الضَّلالُ ؟ فأنَّى تُصْرَفونَ ؟ ﴾ ، [يونُس : ٣٢/١٠] .

☆ ☆ ☆

٢ ـ سلوك الكثير من المسلمين غير اللاَّئق في ديار الغرب ، ولو رأى الغربيُّون من المسلمين الَّذين يؤمُّون الغرب ما رآه الإفريقي والآسيوي من التَّاجر المسلم ، الدَّاعية بسلوكه وأخلاقه ومعاملته لاعتنقت الإسلام أعدادٌ أكبر بالأُسوة والقدوة والعفَّة والطَّهارة ، واللُّطف والأمانة ، ولأسكتوا العديد من وسائل الإعلام المعادية للإسلام وأهله .

٣ ـ غلوُّ بعض المسلمين المتطرِّفين ، وتقديم صورة مشوَّهة من حيث التَّطبيق ، مع جمود تحقَّق منذ أن أصبح الصُّوفي راهباً

لا ساعياً مزكٍّ ، والفقيه جامداً لا مجتهداً باحثاً ، والعالِم قـاضيـاً فظّاً ، لا طبيباً معالِجاً مداوياً .

الـدّاعيـة غير الحكيم ، منفِّرٌ لا جـاذب ، وكثرة التّشـدُّد أو بـالمقـابل كثرة البـدع حيث كثرة الشّـوائب ، مـع جمـود العـالِم وضياع الأتباع .. عوامل سلبيَّة محبطة .

٤ ـ عرض الإسـلام من خـلال قضـايـا فقهيَّــة لا تهمُّ مجتمـع اليوم ، فهو بعيد كلَّ البُعد عنها فلِمَ يُشغل بها ؟ وهذا يـدلُّ على عـدم فهم واقع حيـاة النّـاس ، والبـديل عرض الإسلام الواقعي العقلاني دون تشويـه في الجـوهر والمقـاصـد ، والعـودة إلى سيرة المصطفى المختـار ﷺ ، كيف بـدأ ؟ وبمـاذا اهتمَّ أوّلاً ؟ وتفهُّم سيرته في بناء الفرد والمجتمع في مكّة .

مع الفصل في العرض بين ما هو إسلام (مبدأ ، وعقيـدة ، ومنهج) ، وبين ما هو تاريخ ، فلا يقاس المبـدأ على الرِّجـال ، بل يقاس الرِّجال على المبدأ .

٥ ـ الاستشراق وجهوده ـ ولا أعمّم ـ وما وجّهه من شبهات وافتراءات وإفك حول الإسلام والمسلمين .

وتروّج لجهود الاستشراق مؤسّسات رسميّة ، إمكاناتها كبيرة ، وباعها طويل ، جاعلة النّاس أمام (عدوٌّ موهوم) قادم ، هو الإسلام .

٦ ـ ويضع الكهنوتُ الغربي الإسلامَ ـ عن قصدٍ وغلوٍّ ـ أمام مرآة مقعّرة تارة ، ومحدّبة تارةً أخرى ، فملكة الْجَمَال تجاه هذا الوضع تبدو مشوّهَة يُزْهد بها ، وهذا ما لمسه عدد من المنصفين ، نذكر منهم (نيتشه) الّذي قال عنهم : « لا يخطئون فقط في كلّ جملة يقولونها ، بل يكذّبون ، أي إنّهم لم يعودوا أحراراً في أن يكذبوا ببراءة أو بسبب الجهل » ، (عدو المسيح ، المقطع ٣٨) .

وأنامّاري شِيمل زعية الاستشراق الألماني اليوم ، الّتي قالت في تقديم كتاب (الإسلام كبديل) : « الإسلام مثلٌ نمطي لتلك التّأويلات الظّالمة المشوّهة » .

والأمير شارلز ـ ولي عهد بريطانية ـ « إنّ حكمنا في الغرب على الإسلام قد شوّهه اتّخاذ موقف الغلوّ ، باعتبار أنّ ذلك قاعدة طبيعيّة لإصدار الحكم ، وإنّ هذا يُعَدُّ خطأ كبيراً »[1] .

٧ ـ المعركة المفتعلة بين العروبة والإسلام ، والّتي تضيّع الجهود والأوقات دون طائل أو فائدة .

مَنْ صانع أمجاد العروبة ؟

ومَنْ كاتب تاريخها المجيد الّذي نفخر به ؟

بل مَنْ ناشر العربيّة وباني حضارتها ؟

وكم نعجب ونُسَرُّ عندما نسمع وزير خارجيّة الشّيشان ينطق بالعربيّة الفصحى كواحد من أبناء أُمّة العرب ؟! ورئيس وزراء البوسنة الدكتور حارث سيلادتش يقول للمذيع

(١) صحيفة (تشرين) العدد ٦١٨٠ ، الاثنين ١٩٩٥/٣/١٣ م ، وتصريحه هذا ، قاله خلال زيارته للقاهرة ، وبعد مقابلة شيخ الأزهر ومفتي الدّيار المصريّة .

العربي في إذاعة لنـــدن : تكلَّم العربيَّــة الفصحى كي أستـوعب ما تقول وأفهم ما تريد .

وكلٌّ مسلم ـ غير عربي ـ في العالم مع قضايا الأُمَّة العربيَّـة بـالفطرة ، والشَّيخ الـدَّاعيـة (الجنوب إفريقي) أحمـد ديـدات هُدِّد بالقتل من قِبَل جهات معـاديـة لأُمَّتنـا العربيَّـة ، فقـال : أهـلاً وسهـلاً بـالشَّهـادة ، إنَّ مـوقفي جـزء من عقيـدتي ، وأنـا لا أُساوم على عقيدتي .

لقـد كانت العروبـة في وادٍ غير ذي زرع ، فـأصبحت في شـواطئ الأطلسي ، ومـا وراء النَّهر ، وفي حـوض النَّيجر وسمرقند وبخارى وكاشغر ..

سعد العرب بالإسلام عقيدةً وديناً .

وسعد الإسلام بالعرب حملة فاتحين أوَّلين .

وأثبت التَّاريخ ـ بيقين ـ أنَّ العرب بلا إسلام كالمحـارة الَّتي فقـدت غطـاءهـا الصَّـدفي ، وكما يقولون : إنَّ المحـارة الَّتي تفقـد

غطاءها الصَّدفي تصبح عرضة لأن تُدَمَّر ، وتفقد بالتَّالي وجودها إن اعترضها خصومها .

☆ ☆ ☆

إنَّ أسس انتشار الإسلام متوافرة فيه ، تجعله كالرِّياضي الرَّشيق الَّذي يلعب (جمبازاً) بين معوِّقين ، منها :

١ ـ متانة أُصوله الَّتي تخاطب العقل ، وتجعله فيصلاً في المحاكمة ، وفي القبول أو الرَّفض .

٢ ـ بلاغة القول وحسن البيان ، مع الحوار بالَّتي هي أحسن .

٣ ـ شعور النَّاس أنَّ خطاب القرآن الكريم موجَّه إليهم مهما كانت قوميَّتهم ، يقول بسمارك[1] : « إنِّي تدبَّرتُ وتأمَّلتُ ودقَّقتُ الكتب السَّماويَّة المنزلة الَّتي يُدَّعى أنَّها واردة من

---

(١) بسمارك Bismarck (١٨١٥ ـ ١٨٩٨ م) من مشاهير السِّياسيِّين الألمان ، حقَّق الوحدة الألمانيَّة ، وجعل ألمانية في مقدِّمة الدُّول الأُوربيَّة في القرن التَّاسع عشر الميلادي ، حتَّى قيل : « أوربّة بسمارك ، وعصر بسمارك » .

اللاّهوت ، فما وجدت لما فيها من التّحريف ما أنا طالبه من الحكمة ، وإنّ تلك القوانين ليست بحيث تؤمّن السّعادة للبشريّة ، لكنّ القرآن المحمّدي ليس بداخل في ذلك القيد .

نعم ، دقّقت القرآن من كلّ جهة ، ومن كلّ نقطة ، فوجدت في كلّ كلمة منه حكمة عظيمة ، ومن ادّعى أنّ هذا القرآن ترشّح من قريحة محمّد فقد أغمض العين عن الحقائق ، لأنّ ذلك الزّعم يمجّه العلم والحكمة ، وإنّي أدّعي أنّ حضرة محمّد قدوة ممتازة ، وليس في داخل الإمكان إيجاد القدوة محمداً ثانياً .

فيا محمّد إنّي متأثّر جداً من أن لم أكن معاصراً لك ، إنّ الكتاب الّذي نشرته ليس من قريحتك ، وإنكار أُلوهيّته سخف ، كما أنّ الارتكاب على بطلان علم الموضوعات سخف ، إنّ البشريّة رأت قدوة ممتازة مثلك مرّة واحدة ، ولن ترى مرّة أُخرى ، فبناء على هذا أنا أُعظّمك بكمال الاحترام ، راكعاً في حضورك المعنوي »[1] .

(١) إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز ، بديع الزّمان سعيد النّورسي ، ص ٢٦٥ ، ط ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م ، دار العربيّة ـ بيروت ، تعريب : خليل عبد الكريم المارديني .

والإسـلام الَّـذي سيـلأ المجرى ، إسـلام في صفـائـه الأوَّل ، وهو :

لطيف في عرضه .
نظيف في فكره .
موضوعي في بحثه .
مثالي في عمله .
واقعي في حياته .
متكامل في تبيانه ..

☆ ☆ ☆

وأخيراً ..

حضر إلى إسطنبول مع مطلع هذا القرن الشَّيخ محمـد بخيت المطيعي ، مفتي الـدِّيـار المصريَّـة ومن كبـار فقهـائهـا ، وكانت الـدَّولـة العثمـانيَّـة قـد أعلنت الـدُّستـور في ٢٣ تمـوز ١٩٠٨ م ، وانتخـاب مجلس نوّاب تكون الـوزارة مسؤولـة أمـامـه ، سـأل الشَّيخ المطيعي بـديـع الـزَّمـان سعيـد النُّـورْسي : مـا رأيـك في

الحرِّيَّة الموجودة الآن في الدَّولة العثمانيَّة ؟ وماذا تقول في مدنيَّة أُوربة ؟

فأجابه بديعُ الزَّمان النورسي : إنَّ الدَّولة العثمانيَّة حبلى حاليّاً بجنين أوربة وستلد يوماً ما . أمَّا أُوربَة فهي أيضاً حبلى بجنين الإسلام وستلد يوماً ما[1] .

ويتساءل المرء : هل سيتحوَّل أهل الفسوق والفجور والخمور والحرِّيَّة الجنسيَّة إلى التزامات الإسلام ؟

ونجيب : إنَّ المرض يكمن في حياتهم هذه ، وإحصاءات نتائج هذه الحياة مذهلة ، قدَّمنا بعضها خلال هذا الكتاب ، والإسلام هو الدَّواء ، إنَّه طوق النَّجاة القادم .

ونذكِّر بقول السِّيناتور الأمريكي (وليم فولبرايت) صاحب كتاب (حمامة القوَّة) : « لقد وضعنا رجلاً على سطح القمر ولكن أقدامنا غائصة في الوحل » .

---

(١) بديع الزَّمان النورسي ، تأليف : إحسان قاسم صالحي ، ص ٣١ ، ط٢ دار سورلر ، إسطنبول .

نبوءةً نقولها : إنَّ الطَّريق معبَّـدة بين الإسلام وبين شعوب العالم .

إنَّها (بشارة) اعتمدَتْ على معطيات أوَّليَّة .

نسأل الله أن تتحقَّق ، لينعم العالم بالطُّمأنينة الرُّوحيَّة ، إلى جانب الرَّفاهيَّة للجميع .

عبء كبير ، ومسؤوليَّـة عظمى ، واقعـة اليوم على عـاتـق المسلمين عـامَّـة ، وعلى مفكِّريهم وعلمـائهم المخلِصين خـاصَّـة ، في التَّقدُّم إلى البشريَّة الحائرة التَّائهة بـالحلول الإسلاميَّـة لمشكلاتهـا المعاصرة .

ولن ينتظر عـاقل ـ والحـال هـذه ـ بزوغ فجر الإسلام من الغرب وهـو متقـاعس متـواكل ، حينهـا يستقيم دينـه ، ويُسْلِم وجهه لله ربِّ العالمين .

والآيات الكريمة جليَّة واضحة تحذِّر وتتوعَّد :

﴿ وَإِنْ تَتَـوَلَّـوْا يَسْتَبْـدِلْ قَـوْمـاً غَيْرَكُم ثُمَّ لا يَكُـونُـوا أَمْثالَكُم ﴾ ، [محمد : ٤٧/٣٨] .

﴿ يـاأيُّهـا الَّـذينَ آمَنوا مَن يَرْتَـدَّ مِنْكُم عَن دينِـهِ فَسَوْفَ يَـأْتِ اللهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُم ويُحِبُّـونَـهُ أذِلَّـةٍ عَلى المُـؤْمِنينَ أعِـزَّةٍ عَلى الكافِرينَ يُجاهِـدُونَ في سَبيلِ اللهِ وَلا يَخـافونَ لَوْمَـةَ لائِمٍ ذلِـكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتيهِ مَن يَشاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَليمٌ ﴾ ، [المائدة : ٥/٥٤] .

والحمد لله ربِّ العالمين أوّلاً وآخراً .

☆ ☆ ☆

المحتوى

الإسلام نهر منبعه (حراء)، ومصبه (القرآن)، ومنبعه رحمة للإنسانية، وفطرته ومساحته لأولي الألباب الذين يتفكرون ويعقلون، وعبر شعب الحضارة الله حمل الإسلام للناس كافة.

نهر تدفق، فانسابت فروعه وسواقيه إلى الصين وأفريقية وأوربة، فأينعت على ضفتيه المخصبتين الخيرتين آثار بهيجة علمية، وحضارة إنسانية.

هل نضب المعين فجفت مياه المجرى؟

لقد علمنا التاريخ أن المعين غزير متدفق، فالإسلام نهر خالد لن يجف مجراه، فهل من جسر ليلوح المجرى مدينة العرب اللاهثة التي جفت فيها ينابيع الروح.

وفي (الإسلام نهر يبحث عن مجرى): المجرى الذي جفّ، والنهر الذي يبحث عن مجرى، ويبقى الإسلام قويًا، والقرن الحادي والعشرون قرن الإسلام.

ISBN 1-57547-267-8
9 781575 472676